راس شيطان

رواية

اسم الكتاب: راس شيطان
تأليف: وائل عبد الرحمن
تصحيح لغوى: عزة أبو الأنوار
رقم الإيداع: 2014/19842
الترقيم الدولي: 978-977-6376-67-0

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

راس شيطان

وائل عبد الرحمن

رواية

تمهيد

لم تعمل المظلة بشكل جيد، فكان اصطدامه بالأرض عنيفًا تلك المرة، للدرجة التي أفقدته الوعي لدقائق أفاق بعدها مذعورًا.. ينزف.. يتصبّب عرقًا ويكسو الغبار وجهه وملابسه الممزقة. يتحامل ويحاول النهوض.. فيعمي عينيه وهج قرص الشمس ويقع ثانية. يدفن رأسه في رمال الصحراء الحارقة، ويضرب الأرض بقبضتيه، غير مصدق أن ما فعله وملأه سعادة وفخرًا منذ قليل، يتحول الآن إلى أبشع كابوس ممكن.. كابوس مرئي ومسموع وملموس، كابوس يتحقق ويملؤه عارًا يدفعه دفعًا للانتحار.

يتعالى صوتُ بكائه ونحيبه ندمًا وقلقًا مما هو آت، إلى أن سمعهم قادمين بالفعل.. ماكيناتهم وجنازير دباباتهم ومدرعاتهم تقترب ببطء.. وضجيجها يعلو شيئًا فشيئًا.. ماكينات الموت تدور وتقترب.

اللعنة! بتلك السرعة؟!

يرفع رأسه فتمرق رصاصة بصفيرها الحاد جوار أذنه. يلتصق بالأرض.. يزحف ويلهث. يقتربون وتمرق رصاصتان أخريان فوق

رأسه. هم أسرع منه كثيرًا. يملؤه الندم لا الخوف، على قومه لا على نفسه. يرتفع صوت ضجيجهم بشدة فيصم أذنيه. يتحامل وينهض ويجرّ ساقه المصابة، وتتطاير من حوله رصاصاتهم الغزيرة. يظن أنه يجري، لكنه يتقافز كالأعرج وهو ينزف والمسافة بينه وبينهم تقترب بشدة.. إلى أن أصبح في وسطهم تمامًا، لكنهم يمضون في طريقهم كأنه سراب أو هباء منثور.. ليدرك أنهم لا يرونه.

ويدرك أن دوره في تلك الجولة قد انتهى.

وأنه فقط سيشاهد نتيجة فعلته الحمقاء.

وأنهم متجهون كالشؤم، بذلك الجيش وتلك النية السوداء، إلى قلب وطنه.. إلى القاهرة.

-١-

فِي قاعَـةٍ خُماسـيّة ضخْمـةٍ خافِتـة الإضـاءَة، ذاتَ سَـقفٍ مرتَفـع تملـؤه زخـارف، ورسُـومات تبـدو كتسْـجيل لمَلحَمـة ضاريـة بـيْنَ جيشَـين عظيمَـيْن يتنازَعـان عـلى خريطـة، كان "الأنْـوَر" جالسًـا بهيبـة ووقـارٍ عـلى كُـرسيّ ضخْـم، يـزدانُ ظهـرُه ومِسـنداه بنقـوشٍ مـن أحـرفٍ عربيـة مُتداخلـة، مُمسـكًا بريشـة يخُـطّ بهـا في كتـابٍ ضخْـم موضـوع عـلى طاولـة مهيبـة سـميكة مـن خشـب عتيـق، مرفوعـة عـلى أعمِـدة رخاميّـة بيضـاء راسِـخة في أرضيـة القاعـة الخشـبية بجـذورٍ ذهبيّـة مجْدُولـة.

يَدخـلُ "واعـظ" القاعَـة بخُطـواتٍ حَثيثـة، احترامًـا لحَـضْرة "الأنـوَر" وهيْبَـة المَـكَان، وكانَ صـوْتُ وَقْـعِ قدَميْـه عـلَى الأرضيّـة الخشـبيّة هـو الصـوتُ الوحِيـد في المـكان. يتخـذُ "واعـظ" مكَانـه وقوفًـا عـلى مسـافةٍ مناسـبة مـن منْضَـدةِ "الأنـور"، عاقِـدًا كفّيْـه أمَامَـه في صمْـت، ناظـرًا إلى مَوضِـع قدميْـه وظَهْـره مُنْحنيًـا انحِنـاءة خَفيفـة إجـلالاً، ولم ينطـقْ بِحَـرف، بينـما دخـان البخُـور ينسـابُ مـن أماكـن كثـيرة ناثـرًا رائحـةً زكيـة.

كثـيرٌ مـنَ الوقـت مـرّ عـلى هـذه الحـال، ولم يَرفـعْ "الأنـوَر" عينيْه

-ولـو مـرّة- عـنْ أيٍّ مـنَ الكِتـاب الـذي يكتـبُ فيـه، أو المحـبرة التـي يغمـسُ فيهـا ريشـتَه كلّ حـين، ولم يتململْ "واعـظ" في وقفتـه ولم يغـيّرْ فيهـا مـنْ شيء، اللهـم إلا مـن نظـرةٍ اختلسـها إلى "الأنـور" لـيرَى نـورَ الشـمْعة يتراقـصُ عـلى قسَـماتِ وجْهـه وتَجاعيـده ولِحيتـه الطّويلـة البيْضَـاء النّاعِمـة، وعَمامتـه الضّخمـة البيْضَـاء ذات الحَجَـر الكريـم الأخـضَر في منْتصفهـا فـوقَ جبْهتـه، قبـل أن يعيـدَ نظـرَه إلى مَوْضـع قَدَميْـه مـنْ جَديـد.

أخـيرًا.. بـدا أنّ "الأنـور" كمـنْ يكتـبُ الكلـماتَ الأخـيرة في الكِتَاب، وبعْـد انتهائـه منهـا وَضَـعَ الرّيشـةَ في المحـبَرَة، وببـطء أغلَـق الكتابَ الضّخـم، ومـرّر يـدَه فَـوق الشّـمعة ببـطء فانطفأت.

اشـتدّت إضـاءةُ القاعـةِ مـنْ خمْـسِ ثُريّـات أضـاءت تلقائيًـا بمجـرّد انطفـاء الشّـمعة.

يعقَـدُ "الأنـور" قَبضتيْـه عـلى الطّاولـةِ وينظـرُ إلى "واعـظ" بعينيه الخاليتـين مـن الانفعـالات، فيرفـعُ "واعـظ" عينيْـه ويعـدّل مـن وقفتِـه في انتبـاهٍ وقـد أُذِنَ لـه بالحديـث، فيقـول بلهجَـة يشـوبُها القلـق:

- "قائظ"!

لم يبـدُ عـلى "الأنـور" أيّ انفعـال ولم يقُـل شـيئًا، فيسـتطْردُ "واعـظ":

- "قائظ" طَليق. انتهتْ مُدّة تصْفيدَه منذُ برهَة.

يسـندُ "الأنـور" ظهـرَه للخلـف، ويضـعُ ذراعَيْـه عـلى مسـندي كرسِـيّه ويسـندُ ذقنَـه عـلى قبضتيْـه المتشـابكتين، ويعلـو الاهتـمامُ وجهَـه ويومـئ لـ"واعـظ" أن يسـتمرَ، فيقـولُ:

- وحازَ مخطوطةَ الدّهر.. سَلَبَها منْ مَكْمَن الأقدار!

بصـوتٍ رخيـمٍ عميـق بـه حكمـة دُهـور وأزمِنَـة، سـألَ "الأنـور" بثبـات، وإنْ بـدأت رائحـةُ القلـق تظهـرُ في المَـكان:

- ألمْ تحرقْه وتذرْه رَمادًا؟

- نعم، لم تحرقْه.

تتّسـعُ عينـا "الأنـور" للحظـةٍ اندهاشًـا، قَبْـل أنْ يفـسّر "واعـظ" سَـببَ عـدم احـتراق "قائـظ" بالمخطوطـةِ المسروقـة، التـي يَبـدو أنّهـا قـادرةٌ عـلى حـرق غـير المخوّلـين بحيازتِهـا حـالَ لَمْسـها:

- لقـدْ جنّـدَ فيلقًـا مارقًـا.. بـه سـاحرةٌ شـديدةُ البـأس.. كَفَتْـه شرّ الاحـتراقِ لَعْنًـا، فامتلـكَ الوثيقـة.

يَهـزّ "الأنـور" رأسَـه ببـطءٍ مـرّات ومـرّات، ويبـدو أنّـه يفكّـر في عواقـب تلْـك الأخبـار السـوداء، فينقـلُ أفـكارَه إلى كلـماتٍ صارمـةٍ وجّهَهـا لـ"واعظ":

- ليـسَ فقـط امتـلاك تلـك المخطوطـة هـو ما يجـود بالاسـتطاعة.. بـل تلـزم أيضًـا قـراءت موزونـة لكلـمات موضوعـة، لا يعرفهـا هو.

فـيردفُ "واعـظ" بـتردّد، وهـو يـدركُ مـدى شـؤم مـا سـيخبر بـه

"الأنـور" حـالاً:

- الساحرة رِفْقته عرفتْ أسرارَ الكلمات!

هنـا، ولأول مـرة يمتقـعُ وجْـه "الأنـور" مـدركًا أنّ امتـلاكَ تلـك المخطوطـة مـع معرفـة مفتـاحَ تشـغيلها -إن جـاز التعبـير- يكفـلُ لـ"قائـظ" المـارق الـذي لا يكـفّ عـن العبـث، يكفـلُ لـه مـا يفـوق أقـصى رغباتـه بكثـير، التحكّـم -أو للدقـة "العبـث"- في الأقـدار. لا، ليسـت الأقـدار التـي سـتقع، بـل تلـك التـي حدثـت بالفعـل.. مـا مـن شـأنه أن يعطيـه أفضليّـة وتفـوّق أبـديّ في العـالم المـوازي ذي الأقـدارِ الجديـدة الـذي سـيهوون جميعًـا إليْـه.. هـم والبشريـة جمعـاء.. حـال نجاحـه في تغيـير المـاضي.

ينهـضُ "الأنـور" ممسـكًا بالكتـاب، فينـزاح كرسـيه مـن ذاتـه للخلـف مـترًا، ويسـيرُ بخطـواتٍ راسـخةٍ وسْـط دخـان البخـور المتراقـص إلى مكتبـة تحتـل جداريـن كاملين بارتفـاع القاعـة بأكملها، ومـا أن يصلهـا حتـى يضـع الكتـابَ في مكانـه في الـرف وسـط آلاف آلاف الكتـب، ثـم يَمـدّ ذراعـه لأعـلى ليمسـك بقائـم أحـد الأرفـف ويجذبـه لأسـفل، لينزلـق الجـدار بأكملـه في أرضيّـة القاعـةِ، لتظهـرَ مـن السـقفِ مجموعـةٌ أخـرَى مـن الأرفـف تمـلأ الجـدار.

يظـلُّ "الأنـور" يبحـثُ بعينيـه في الكتـبِ الموضوعـة، إلى أن يجـدَ مـراده في رف علـوي.. فيجـذبُ الجـدارَ لأسـفل قليـلاً ببـطء، ويأخـذ كتـابَ يماثـل السـابق ضخامـةً وقِدَمًـا، ويعـودُ ببـطء إلى كرسـيه الـذي اقـتربَ مـن الطاولـة مـع اقـتراب "الأنـور"، فيجلـسُ

وعلامات القلقِ والتفكير العميق بادية على وجهه، ويمرّر كفّه فوق الشمعة فيشتعل لهبها من جديد، وتخفت إضاءة القاعة بانطفاء الثُريّات تلقائيًا من جديد.

أخذَ "الأنور" يقرأ كثيرًا في الكتاب، يقرأُ ويقرأ ويقلّب الصفحات ذهابًا وعودة، و"واعظ" واقف مكانه لا يتحرك، وألسنة دخان البخور تتراقصُ من حوله.

ينعقدُ بشدة حاجبا "الأنور" الكثّين الأشيبين، ويأخذُ ريشته من المحبرة، ويكتبُ قليلاً مِن الكلماتِ في الكتاب، ثم ينظرُ إلى "واعظ" ويقول بنبرة آمرة وقلقة:

- اتبعه.. وامنعه.. افعل كل ما يلزم.

تنتصب قامة "واعظ" اهتمامًا، وتكتسي ملامحه بأهمية المهمة، ويستكملُ الأنور:

- لا يزال "قائظ" لا يستطيع تخطي الحاجز ولا يستطع أن يغيّر شيئًا بنَفْسه، سيغوي أرضيّا.. يخْدعُه.. يضلله.. لا مفر، ليأتي بفعلته. إنْ لم تُدرك هذا الـ"قائظ"، وعِّ الأرضي المختار.. لا تدعه يعبث ظانًّا أنّه يُحسن صُنعًا.

في تلك اللحظة تتسللُ للقاعةِ أصواتُ همهماتٍ رتيبةٍ جماعيّة، همهمات إيقاعيّة صادرة عن حناجر قويّة وأفواهٍ مُغلقة.

يَقفُ "الأنور" بهمّة فيتزَحزَحُ الكرسيّ للخَلف، ويقولُ موجّهًا الكلمةَ الأخيرةَ لـ"واعظ":

- لا تَغفَل لحظة، ولا تدع "قائظ" يفعلها.

يومئ "واعظ" برأسه إيجابًا وهو يتراجعُ ثلاثَ خطواتٍ بظهره قبل أن يستدير متّجهًا لمهمّتِه المصيريّة، ويَستديرُ "الأنور" متّجهًا بخطواتٍ واسعةٍ لبابٍ عملاق، ما أن اقترب منه حتى انفتح بغتةً على منصّةٍ كبيرة مرتفعة تطلُّ على سَاحةٍ رُخاميّةٍ عملاقة مَداها مدَى البصر، يقفُ بها المئات، بل الآلاف، متراصّين في خشوعٍ مُغمِضي أعينِهم ويهزّون رؤوسَهم ببطءٍ ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليسار، مُصْدِرين تلك الهمهمات الجماعيّة.

يقفُ "الأنور" ينظرُ إليهم مليًّا، فترتفعُ همهماتُهم وتُصْبحُ أقوَى بِدُخولِ "الأنور" للمنصّة. فيرفعُ "الأنور" ذراعيه عن آخرهما ضامًّا قبضتيه ليسقط كمَّي جِلبابِه الأبيض إلى ساعِدَيه، فأخذت الجموعُ في التشكّل في دوائر عملاقة.. دوائر داخل دوائر داخل دوائر. وأخَذَت كلُّ حَلقة في الدورانِ بسُرعةٍ بطيئةٍ في اتّجاه عَكْس دوران الحلقةِ التي تَسْبقها والتي تليها، وقد ضَمَّ جَميعُم أذرعَهم متقاطعة أمام صدورِهم وما زالوا مُغمضي الأعين، وفَتَحوا أفواهَهم ليصدر الصّوت من الحناجر ويعلو رويدًا رويدًا بكلمةٍ واحدة:

- هُوَّ!

يسبحُ "الأنور" في الهواءِ هابطًا منْ شُرفتِه ليَخترق الحلقات الدّائرة ويمرُّ مِن خلالِها، فيلمسُ أثناءَمُرورِه عمامةَ هذا أو ذاك بكفّه، فتتفجّر لحظيًا تلك الحلقة بلفظةٍ قادمةٍ مِن أعماقِ

الحناجـرِ ويهتفـونَ جميعًـا في نَفَـس واحـد:

- الله!

فتَزيـدُ سرعـةِ دورانهـم ويعـودون لترديـد "هُـوَ" بصـوت أعـلى مـن ذي قبـل، ثـم ينتقـل "الأنـور" للحلقـة التـي تليهـا ويعيـد الكَـرّة، فيقولـون جميعًـا بأعـلى صـوت:

- حَيّ!

ثُـمّ يعـودون لترديـد وتكـرارِ اللفـظ "هُـوَ". إلى أنْ وَصَـل "الأنـور" إلى مركـزِ تلـك الدوائـر، فينَظـر لأعـلى وهـو يرتفـع في الهـواء رافعًـا كفّيـه المفتوحَتـين عـنْ آخرهـما لأعـلَى مـدى، ليجـأرَ بصـوتٍ كأنّـه قـادم مـن أعمـقِ أعـماقِ الكـون في صيْحـة طويلـة، أسـكتت وأسـكنت الجميـع تمامًـا.. هاتفًـا:

- هُوَ الله!

ومـا أن انتَهـى مِنْتَسـبيحته الطّويلـة، حتَّـى انفـكَّ تجمّـد الجُمُـوع.. وأَخـذوا في الـدورانِ وهُـم مغمضـو الأعـين.. كَتفًـا في كتـف.. دوران آخـذ في التّسـارع.. صائحـينَ مـن أعماقِهـم بالتبـادل بـينَ الحلقـاتِ الدائـرة في اتجاهـات مُتعاكِسـة بـين "هُـوَ.. هُـوَ.. هُـوَ" و"اللـه.. اللـه.. اللـه"، بينـما الدوائـر الخمسـة المركزيـة ثابتـة مكانهـا ويلوّحـون برؤوسـهم يمينًـا ويسـارًا هاتفـين "حَـيّ.. حَـيّ.. حَـيّ".

و"الأنـور" في مكانِـه خَاشِـعًا نَاظـرًا إلى السـماء، منطلقًـا في

ابتهالاتــه لربــه.

*****

في تلــك الأثنــاء، كان التحــام "قائــظ" بطيــف "حــازم" قــد تــمّ بالفعــل، وأخــذ روحــه إلى صفحــة مــن صفحــات المــاضي، ليراقبــه عــن كثــب، وهــو يحــضّر لــه إرادة الفعــل، التــي ســتدفع "حــازم" إلى القيــام بتغيــير في الحــدث، في المــاضي.. لينقلــب إثْــرَ ذلــك، الحــاضر، والمســتقبل، والوجــود.. رأسًــا عــلى عقــب.

-٢-

ما إن خرجنا بالسيارة من نفق الشهيد أحمد حمدي، وبعد أقل من كيلومتر واحد في أرض سيناء، التي تطؤها أقدامنا (أو إطاراتنا للدقة) لأول مرة في حياة أيٍّ منّا، كان لزامًا علينا التوقف للتفكير في وجهة الرحلة التي لم نقرر أي شيء بخصوصها، أكثر من كونها إلى سيناء.. وفقط.

كنّا -ثلاثتنا- أصدقاءً منذ زمن بعيد جدًا.. أصدقاء طفولة، ونتحيّن الإجازات المعتادة السنوية للسفر إلى الساحل الشمالي. وعندما حان ميعاد الإجازة تلك المرة.. خطر في بالي تغيير الروتين والسفر إلى أيٍّ من منتجعات سيناء، وكانت الفكرة الوليدة قبل عيد الأضحى بيومين فقط.

وعندما عرضت الفكرةعلى صديقيَّ، كان ما توقّعت تمامًا. ترحيب كبير من "أكرم" الذي ملّ السفريات المعتادة وروتينها المتكرر، مثلي تمامًا، ورفض قاطع من "عمر" الذي لم يكن يقلقه انعدام التخطيط الكامل للرحلة، قدر ما ضايقته فكرة المجازفة بواحدة من الإجازات القليلة، في مكان نستكشفه ولا نعلم -يقينًا- قدر المتعة الذي يوفره.

والمتعة كلمة مطاطة بشدة، تتمدد وتنكمش في جميع الاتجاهات، بعض الناس يمتعهم بشدة كوب شاي في البلكونة، بينما ابنة السلطان أصابها الضجر القاتل في إحدى قصص الأطفال. لذلك دعني أوضّح تفاصيل ذلك التعريف في قاموسنا نحن الثلاثة:

المتعة: بحر.. بنات ببكيني.. موتوسيكل مائي.. حشيش صباحًا.. حشيش مساءً.. وحشيش فيما بينهما.

لسنا مدمنين إن حسبت هذا، فقط في السفريات ندخّنه، بل نعتبره ضرورة أساسية أو بعدًا رابعًا لتكتمل متعة أي رحلة.

كنا نذهب إلى الساحل دومًا و(إحنا محضّرين الشنطة) على حد وصف "عمر".. يعني بهذا المصطلح المعبّر حقًا، أن معنا كمية الحشيش الكاملة التي تكفينا طوال أيام السفر. لكن حدث ذات مرة أن تمّ استيقافنا في كمين شرطة على الطريق الصحراوي. لو كان قد رآنا العالَم أثناء دخولنا على الكمين، لصفّقت البشرية جمعاء لمؤلف مقولة "يكاد المريب أن يقول خذوني" حتى يصيبه الصمم. حدث في هذا الكمين ما حدث، وما أوَدّ نسيانه، ومن بعدها وثلاثتنا لا (نحضّر الشنطة).. بل نبتاع ما نريده من الحشيش من عرب جالسين على طريق الساحل نفسه، متخفين في هيئة بائعي تين برشومي.

أنفجِر ضحكًا كلما تذكرت موقفًا حدث ذات مرة.. عندما كنت أتداول مع أحد هؤلاء التجار، فتوقفت سيارة تستقلها

أسرة مصرية كاملة، نزل ربّها ليبتاع كمية التين القليلة التي ظن أنها معروضة فعلاً للبيع، واندهَشَ بشدة من رفض التاجر لبيعه الكيلو الوحيد الموضوع فوق القفص الخشبي.. فلما زاد إصرار الرجل عاشق التين على شرائه.. ما كان من التاجر المتأفف إلا أن تجاهله تمامًا، وأخرج قطعة محترمة من الحشيش، وأخذ يفركها ويشمها ويعضها قبل أن يناولها لي أمام الرجل، هكذا جهارًا على الملأ. ذعر أصيل نقيّ تولّد أنهارًا في كيان هذا الرجل الأُسريّ وهو يهرول لسيارته ويتعثر وينهض ويسُب، قبل أن ينطلق بها هاربًا من الشياطين.. بينما أطفاله يراقبوننا من الزجاج الخلفي وهم يصرخون من الرعب.

إذن نصف تعريفنا للمتعة "حشيش.. حشيش.. ثم حشيش" على المحك في هذه الرحلة. لا نعرف مصادر في سيناء، ولن نأخذ ما يكفينا من القاهرة. لكن لا ضرر.. كنت قد سميتها "مغامرة" في الأساس. لنرَ كيف ستسير الأمور.

كثيرًا أخبرني "أكرم" و"عمر" أن عملي -كـadvisor في شركة لسمسرة وتداول الأسهم في البورصة- كان له انعكاس مباشر على شخصيتي وحياتي في تفاصيل عدة.. حتى اسمي "حازم" اعتبراه تجسيدًا لصفة استخدمها في عملي. لم أعارضهما، ولم أخبرهما برأيي المماثل في انعكاس مجال عملهما الوظيفي عليهما.

فالسنوات الستة التي قضاها "أكرم" منذ تخرّجه في هندسة البترول، جميعها كانت في الحقول البترولية.. سواء في الصحراء

أو في قلب البحر.. لم يرَ مقر الشركة الرئيسي الإداري إلا مرتين في المقابلات الشخصية، ومرة أخرى يوم توقيع العقد. كان لهذا الانعزال عظيم الأثر عليه، فأصبح شحيح الكلام إلى حد كبير.. رغبته صارت صفرًا في اكتساب معارف جدد.. مزاحه صار معقدًا نسبيًا، ويحتاج إلى تفكير سريع لتدرك مقصده وحبكته قبل أن تسايره فيه. كل هذه الخصال تناقض طبيعة "أكرم" الأصلية.. لكنك دائمًا ترى في أصدقاء طفولتك طبيعتك وطبيعتهم الأصلية مهما تغيروا. تعرف تلك العلاقات التي تتحول فيها الصداقة إلى نوع من الانصهار أو التواؤم الكامل مهما اختلفَت تفاصيل مزاجية أو اهتمامات فرعية. فقط بعد وقوعنا في الأسْر (أي الوظيفة والحياة العملية) تغيّر كل منا على حدة، ولو رآنا صاحب مقولة "الطيور على أشكالها تقع" لانتحر حرقًا دون تردد.. لكنه لو كان رآنا قبل ذلك الأسْر، لطالب بحقه في الميدالية الذهبية في أولمبياد الأقوال المأثورة.

أما "عمر" فيعمل في مجال التسويق في شركة مالتي ناشيونال منذ تخرجه منذ سبع سنوات، ولديه كل ما يلزم لتلك الوظيفة في تلك الشركة.. لباقة، خفة ظل، مظهر، لغة، موبايل بلاك بيري. هو من الشخصيات ذات الكاريزما. وهو في الحقيقة يتقن ببراعة أن يخفي في أعمق أعماقه مشاعره الحقيقية تجاه من تفوق سخافتهم المدى. "عمر" إجمالاً شخص لطيف المعشر. ولكن ينتفي عنه كل ما سبق ذكره -بالنسبة إليّ- عندما يصرّ على الحديث في ذلك الموضوع الذي احتل جزءًا من حياته

قريبًا. فقد أيقظني ذات يوم في الثانية بعد منتصف الليل بمكالمة يتحدث فيها كأنه في قلب بركان، صارخًا فيّ -حرفيًا- أن أقفز من السرير وأقابله للضرورة القصوى. حاولت أن أفهم ما هنالك مسبّقًا، لكن هيهات. قمت والفضول والغيظ يتصارعان على أحقية أيهما في قتلي.

قابلته في المكان المحدد.. لأجد ملامح الجدية والخطورة يكتسي بهما وجهه. ومن دون مقدمات سألني وهو ينظر في عيني:

- نفسك تبقى مليونير؟

- طبعًا.. دماغك فيها إيه؟

- من غير أسئلة.. هات ست آلاف جنيه!

وبعد ساعة كاملة من اعتصاري له لينطق بما عنده، ونفاد صبر -مداه تلك الساعة- من جانبه، مع إصراره أن أدبر له المبلغ دون أسئلة، وأن مصلحتي هي ما يشغله وكلام من هذا القبيل، انفجرت غاضبًا من هذا البَلَه وأمرته أن ينطق أو ننصرف. فقال نافد الصبر، متأففًا من غبائي، إن الموضوع يتعلق بشيء يسمى التسويق الشبكي.. وأخذ يشرح لي هراء عن شجرة وعن أشخاص يبيعون هراء لأشخاص، واجبهم أن يبيعوا نفس الهراء لأشخاص آخرين.. فيأخذ الأشخاص الرواد في شراء الهراء عمولة متغيرة طبقا لـ...

لماذا لا يوجد مثيل عربي للكلمة الإنجليزية الرائعة....bla .bla.. bla

عمومًا.. بلا بلا بلا.

بعد رد فعل قاسٍ (حلقي ولفظي) من جانبي، أدار رؤوس الجالسين في المقهى، أسند "عمر" ظهره وبدت عليه علامات أعرفها جيدًا، تعني أنه سيدخل في الخطة "ب". فتغيرت لهجته وقال لي بحكمة لم تلِق به:

- طيب.. سيبك من السيستم.. معايا منتج سحري هيغير حياتك.

كان النوم قد غادر خلاياي بلا رجعة في تلك الليلة التعيسة، فخبطت رأسي في المنضدة بدلاً من أن أشجَّ رأسه، وطلبت منه الاستمرار. ففتح زرَّين من القميص وجذبه كاشفًا عن صدره كأنه يريني كنزًا نادرًا! لأجد عنقه يلتف بدوبارة سوداء معلق بها قرص زجاجي يشبه "اللبّانة" التي تضعها أمي في اللبن السائب أثناء غليه كي.. كي... لا أدري لماذا.. لكنها تشبهها جدًا وإن كانت أصغر قليلاً في القُطر.

لو كنت فتحت فمي حينها لأفلت تحكمي في أعصابي كاملاً.. فتحاملت وهززت رأسي متسائلاً، فقال لي إن هذه اللبّانة قادمة من أحجار جبال الألب، وأنها تحوي طاقة كونية تبعد الصداع عنك مدى الحياة وتجعلك ناجحًا في حياتك حازمًا في أمورك ذكيًا في قراراتك، أما إذا وضعت كوب ماء فوقها لعدد من الساعات

ثـم شربتـه بعدهـا.. فجهـازك الهضمـي واسـتقرارك النفـسي ونفـاذ بصيرتـك سـيكونون جميعًـا في حـال لا توصـف مـن الروعـة.

بحثـت حـولي عـن مدفـع هـاون لأنسـفه بـه فلـم أجـد. تحاملت.. ففركـت سـبابتي وإبهامـي علامـة النقـود متسـائلاً عـن سـعرها مـن بـاب الفضـول، فقـال "عمـر" إن ثمنهـا خمسـة آلاف وخمسـمائة جنيـه! فأخـذت حاجيـاتي وغـادرت المقهـى دونمـا أي كلمـة.

وتكـررت محـاولات "عمـر" معـي أنـا و"أكـرم" كثـيرًا جـدًا، ولم تُجْـد معـه أغلـظ الأيمـان التـي أطلقهـا أننـي لـن أدخـل هـذا الـ... بيزنـس -كـما يسـميه- ولا كميـة السـخرية التـي نلقيهـا عـلى رأسـه كلـما تحـدث عـن هـذا الموضـوع.

فيـما عـدا لُزوجتـه في تلـك الأوقـات العصيبـة المجهِـدة التـي يكررهـا دوريًـا معنـا، فهـو شـخص لطيـف حقًـا.. فعـلاً.

عودة إلى سيناء.

بعـد خروجنـا مـن نفـق الشـهيد أحمـد حمـدي بقليـل، لم نكـن قـد قررنـا بعـد إلى أيـن سـنتجه بالضبـط، وفعـلاً هتـف "عمـر":

- بـس بقـى هنـا stop كـده ونشـوف التخلـف بتاعكـو ده هيمشـينا أو نمشـيه إزاي.

ضحكنـا بشـدة وتوقـف "أكـرم" عـلى جانـب الطريـق، فاسـتدرنا لنواجـه بعضنـا بعضًـا، وقـال "أكـرم":

- "عمـر".. بطّـل نـواح يـا حبيبـي.. يعنـي إنـت اتفاجئـت هنـا مثـلاً بالـلي إحنـا مرتبينـه؟

فردّ "عمر" باستهزاء ضاحك:

- مرتبينـه؟ ضحكتنـي يـا اسـمك إيـه إنـت.. اسـمها الـلي إحنـا "مـش" مرتبينـه.

داريت قلقي المماثل الآخذ في التصاعد، وقلت:

- إنـت خايـف مـن إيـه؟! مـش لازم يعنـي الروتـين والملـل بتـاع كل مـرة ده.. مغامـرة مـن نفسـنا مـش هتخَـسّر.

ضرب "عمر" كفًا بكف وقال:

- لا حـول ولا قـوة إلا باللـه! مغامـرة إيـه يـا عـم كولومبـوس! حـد في الدنيـا يسـافر وهـو مـش عـارف رايـح فـين ولا هينـام فـين ولا حاجـز فـين؟! إيـه المغامـرة في كـده يعنـي؟!

فقال "أكرم" بعصبية:

- "عمـر".. إحنـا مـش هنعيـد نفـس الـكلام الـلي بقالنـا يومـين بنهـري فيـه.. أِلـفّ ونرجـع القاهـرة لـو عايـز، ومتقلبهـاش غـم وصـداع!

فاسـتلقى "عمـر" ممـدّدًا جسـمه عـلى الكنبـة وغمّـى عينيـه بذراعـه وقـال:

- آه ما هو من كتر الأجازات اللي بتيجي في السنة فعلا هنروح نستكشف سيناء! من غير ما تقفش يا ابن بطوطة شوف إنت وكولومبوس هتستكشفونا فين، وابقوا صحوني لما نوصل المكان اللي إحنا مش عارفين إننا رايحينه.

ضحكنا من جديد، وأخرجت خريطة لسيناء وفردتها وقلت مشيرًا عليها بسبابتي لـ"أكرم":

- إحنا هنا دلوقتي.. هناخد يمين الجاي إجباري.. لو كملنا بعدها على طول هنروح شرم الشيخ.. ولو خدنا اليوتيرن ده ودخلنا بعدها يمين في الطريق ده هنوصل في آخره في طريق ما بين دهب ونويبع.. دماغك إيه؟

فكر "أكرم" قليلاً ثم قال:

- نروح شرم.. كل الناس بتقول فيها شِعر.. خليها شرم أضمن.

هبّ "عمر" من استلقائه صائحًا:

- أضمن مين يا أبو أضمن؟! وإنت فاكر إن في عيد الأضحى هنلاقي فيها خرم إبرة نتخمد فيه؟!

- طب ما نفس الكلام على دهب ونويبع!

- بص يا ابن بطوطة يا صاحبي.. فيه اختراع في عصرنا ده اسمه إنترنت.. دخلت إمبارح على حاجة فيه اسمها تريب أدفايزور.. قريت فيه إن دهب فيها شاطئ مش بتاع حد..

النـاس بتنـام فيـه بالليـل.. في الطـلّ كـده.

انقضّ "أكرم" ممسكًا برقبة "عمر" مازحًا وهتف:

- يعنـي إنـت عاملّنـا فيهـا باشـا وسـفرياتك مترتبـة وعايـز في الآخـر ترمينـا في شـطّ المشردين.

فأمسك "عمر" بقبضة "أكرم" ليحرر رقبته قائلاً:

- ثانية واحدة بس بعد إذنك!

ومـا أن تركـه "أكـرم" حتـى أخـذ "عمـر" يخبـط رأسـه -نفسـه- مـرارًا في زجـاج نافـذة السـيارة، قائـلاً مدعيًـا البـكاء:

- يـا رب النـاس دي اتولـدت ليـه! ولـو اتولـدت، عرفتهـم أنـا ليـه! ولـو عرفتهـم مقطعتـش معاهـم ليـه!

فهمت ما يقصد طبعًا، فقلت لـ"أكرم":

- "عمـر" قصـده "بـلان بي".. لـو ملقينـاش فنـادق ولا كامبـات فيهـا مـكان فـاضي ياخدنـا، نترمـي في الشـط دهـ وخـلاص.. عنـده حـق بصراحـة.

ففاجأنا "أكرم" بإصراره وغبائه قائلاً ببلادة:

- بس شرم أحلى!

أخـذ "عمـر" يقلـد صيـاح السـيدات مسـتنكرًا رأي "أكـرم"، فقـام "أكـرم" بالانقضـاض عليـه ليوسـعه لكـمات وهميـة، شـاركته فيهـا

ونحــن جميعًــا نضحــك، إلى أن شرد "عمــر" ببــصره عــبر زجــاج الســيارة، مشــيرًا بإصبعــه قائــلاً في قلــق:

- ألف ألف مبروك.. قابلوا المغامرة دي!

فالتفتنــا لنجــد ســيارة جيــب تابعــة للجيــش قادمــة مسرعــة إلينــا عــبر الصحــراء ولا يبــدو أنهــا تنــوي المــزاح، ويعتليهــا جنــود مدججــين بالســلاح. مــا أن وصلــت الســيارة للأســفلت حتــى توقفــت أمــام ســيارتنا قاطعــة طريقنــا، ونــزل منهــا عقيــد بزيِّــه الرســمي يصحبــه جنديــان.

*****

كنــا مــا نــزال متابعــين للمشــهد مــن داخــل الســيارة في صمــت وقلــق، حتــى أن "أكــرم" لم يفتــح نافذتــه التــي وقــف عندهــا العقيــد وانحنــى ليتفحصنــا.

فتــح العقيــد بــاب الســيارة بنفســه وأشــار لنــا بالنــزول، فتراصينــا ثلاثتنــا خارجهــا دون كلمــة واحــدة، وســألنا بعــد فحــص بــصري قتلنــا قلقًــا:

- رايحين فين؟

فأجبنا في نفَس واحد.

"أكرم": - شرم.

أنا: - شرم الشيخ.

"عمر": - دهب يا باشا.

اتسعت عينا العقيد ساخرًا وقال:

- إنتو هتسيبوا بعض في نص الطريق ولا إيه؟

وبعد حديث قصير واطّلاعه على هوياتنا وتفتيش سريع للسيارة، وبعد أن اطمأن أطلقَنا العقيد وقال:

- رحلة سعيدة يا شباب.. بس متقفوش في الطريق أبدًا جوة سيناء.. فكروا من دلوقتي وخلصوا.. لو موقفتوش في منطقة تبع الجيش زي دي، هتقفوا في أماكن أصعب مليون مرة!

تبادلنا الشكر والتحيات والدعوات، وما أن انصرفت القوة، وأدار "أكرم" السيارة، حتى قال "عمر":

- استفتاحة فل بصراحة.. مبسوطين؟

- أنا دم اللي خلفوني نشف!

فقلت لـ"أكرم":

- المهم.. طوالي ولا يوتيرن؟

- يوتيرن.. دهب.

تمام.. التفتّ إلى "عمر" وسألته:

- "عمر" بيه؟

- الساحل.

فاعتدلت في جلستي وأشرت لـ"أكرم" للأمام قائلاً:

- اطلع يا عم اطلع.. ده ناوي يجيبلنا شلل!

وانطلقت السيارة تقلّنا إلى حيث ما لم نكن نعلم.

-٣-

أخذنا اليوتيرن.. ثم انحرفنا يمينًا ممتطين الطريق الذي يشق سيناء بالعرض شقًا إلى نصفين. قرابة الساعة ونصف قضيناها في اللا شيء.. لا شيء.

طريق ذو حارتين للاتجاهين دون فاصل بينهما، أسفلت ليس في أفضل حال وإن كان ليس رديئًا، عيون قطط تحدد جانبيه.. وفقط.

لا أعمدة إنارة.. لا رصيف جانبي.. لا محلات..لا أقفاص تين برشومي.. لا بشر.. لا سيارات.

ولا شبكة موبايل.. وتلك هي الطامة التي اعتبرتها كبرى.

تخيلت -مجرد تخيل- أن إطارين انفجرا معًا تحت وطأة الحرارة الشديدة والسرعة المرتفعة، مجرد التخيل أصابني بالذعر، لكني كتمت تلك المخاوف داخلي وقضيت الوقت في تأمل الرمال الممتدة والسماء الزرقاء واللا شيء.

كنا صامتين تمامًا، إلا من سي دي به كنوز الأغاني للبيتلز ودوورز وأمهات الأغاني في تلك الفترة الجميلة. توجهت ببصري

يمينًـا لأراقـب الصحـراء، فاصطدمـت عينـاي بقـرص الشـمس، ليصيبنـي ذلـك العمـى الجـزئي المؤقـت، مـا جعلنـي أتوهـم رؤيـة سراب أو تخيـل لرجـل يلبـس جلبابًـا ويمسـك بعصـا ضخمـة ويسـير بهمّـة في الصحـراء باتجاهنـا، قبـل أن يتبـدد فجـأة.

تخيلات في صراعي مع الملل.

نطـق "عمـر" بضجـر طالبًـا أغنيـة بعينهـا في الـسي دي، فأجابـه "أكـرم" أنهـا ليسـت في هـذا الـسي دي بالـذات. ورغـم أننـي عـلى يقـين أنهـا الأغنيـة التاليـة، لكننـي صمـتّ ولم أعلـق.. ولم يعلّـق أيهـما.. وحـين انتهـت الأغنيـة، بالفعـل كانـت People are strange هي التاليـة. مـرّ هـذا الحـدث دون أي تعليـق أو نقاش، مـا أدراني أن الملـل فـرض سـيطرته علينـا بالفعـل، وهـذا وحـده كفيـل أن يقتـل أي مـشروع للاسـتمتاع قبـل أن يبـدأ. دائمًـا ألعـب أنـا بـين "عمـر" و"أكـرم" دور رمانـة الميـزان.. فقـررت أننـي لـن أنجـرف أعمـق مـن هـذا في بـئر الملـل الـذي وقعنـا فيـه بالفعـل. فبـادرت بالـكلام في أي كلام، وسـألت "أكـرم" سـؤالاً عميقًـا للغايـة:

- مالك يا "أكرم"؟

انفجـر "أكـرم" في رده دون داعٍ وأخـذ يرمـي اللعنـات عـلى هـذا السـؤال ومـن اخترعـه ومـن يسـأله، ظنًـا منـه -حسـب تعبـير "أكـرم"- أنـه بذلـك يكـون مـلاكًا.. وأخـذ يقسـم مـرارًا وتكـرارًا أن شـكله قـد صـار هكـذا، يبـدو كمـن بـه شيء، وليـس هنالـك -بالـضرورة- شيء. وأنـه أصبـح مجـرد اسـتماعه لهـذا السـؤال

الكريه يغيّر مزاجه، وكفيل بأن يجعل هناك شيئًا بداخله فعلاً، ويصبح السؤال في محله لحظيًا.

ينفجر "أكرم" كثيرًا هكذا، ولا أدخل معه عادة في مجادلات ولا مناقشات حادة، ولا أغضب منه كذلك.. لا أنا ولا "عمر".. لكني أعتقد فعلاً أن لا أحد غيرنا يمكن أن يطيق ساعة مع هذا الشخص الحاد المزاج.

لم أردّ، فاعتذر بعدها بدقائق "أكرم"، وقال إنه فقط يشعر بشؤم ما في طريقه إلينا أو في طريقنا إليه، ووضّح أنه لا يعني بذلك رحلتنا عديمة التجهيزات.. بل يتحدث عن شيء ما مُقْبِض لا يدرِ كنهه. أخفيت قلقًا مماثلاً، وطمأنته أن كل شيء سيكون على ما يرام، وعدنا جميعًا من جديد إلى قواعد الصمت سالمين.

عدت من جديد لمراقبة الطريق الخالي من أي شيء. الطريق يبدو كأن من صممه أمسك بمسطرة ووضعها في منتصف خريطة سيناء ثم جرّ خطًا طويلاً. لا يوجد أي انحناء أو انكسار في الطريق.. لا يرتفع ولا ينخفض.. لا يوجد عن يمينه أو يساره أي شيء إلا الرمال.. منتهى الملل حقًا.

وأخيرًا ظهرَت على مسافة لافتة على جانب الطريق، لست من عشاق اللافتات بالطبع، لكن ظهورها في المشهد جعلها تبدو ونيسًا أليفًا سنمر بجانبه سريعًا. تعلقت بها أنظارنا جميعًا؛ كونها العنصر الوحيد حولنا. اقتربنا منها وظهرت كتابتها. كانت

تحوي كلمة واحدة فقط، قرأها "أكرم" كمحاولة لكسر ذلك الصمت، بصوت عالٍ وبدون أي انفعال، بفتح النون وتسكين الخاء:

- نخْل.

وما أن استدرت ببصري للأمام من جديد، حتى فوجئت بالرجل ذي الجلباب والعصا الذي رأيته منذ قليل يسير في عرض الصحراء، وجدته واقفًا في منتصف الطريق أمام السيارة بالضبط على بعد أمتار قليلة، بينما السيارة بكامل سرعتها تقترب منه.

سنصدمه لا محالة!

جزعًا فردت ذراعيّ وهتفت صارخًا في "أكرم"، بينما الرجل واقف في ثبات ناظرًا في عينيّ فاحصًا، والسيارة تطوي الأسفلت متجهة صوبه. وقبل أن نصدمه بمتر واحد، بدأ صوت الأغنية الصادر من الكاسيت، وصرختي العالية في الانخفاض سريعًا، حتى صارا كصوتين خافتين قادمين من مسافة كيلومترات، واخترق الشيخ السيارة دون تكسير.. أو مرت هي من خلاله.. إلى أن صار أمامي تمامًا داخل السيارة.. قبل أن يتجمد كل شيء، إلا من الشيخ ومنّي.. فوضع يده عل كتفي ممسكًا بي بحزم، وقال مصححًا بصوت عميق قوي، بكسر النون والخاء:

- نِخِل!

-٤-

عِندَما تـرَكَ "واعـظ" "الأنـور" وانْطلـقَ في مهمّتِـه، كانَ "قائـظ" قـدْ سـبِقَه بأشـواطٍ بالفِعْـل. لا نَعْلـم يَقينًـا أدوات "قائـظ" ولا معدّاتـه، ولا كُنْـه التراتيـل التـي يتْلوهـا ولا المـراد منهـا تحديـدًا. لا نعْلـم الجنـودَ المسـخّرينَ لأمْـرِه وعدَدهـم ومَقْدرتهـم، لا نعلـم ولا يهـمّ.. فقـط نعلـمُ أنّـه لا يَعْلـم أنّ "واعـظ" يَقْتفـي أثَـرَه الآن.. وأنّ "الأنـور" يراقِبهـما.

لا نعلـم كُنْـه تلـك الوثيقـة أو المخطوطـة التـي اسـتحوذَ عليهـا بمسـاعدة تلْـك السـاحرة التـي لا نعرفهـا أيضًـا، لكنّنـا نعلـمُ أنّ مـنْ يملـك تلـك المخطوطـة الخطـيرة تسـقطُ أمامـه أبعـاد الزمـن. لا، ليـس أمامـه، فهـو وبنـو جنسـه لا قيـود زمنيـة تقـعُ عليهـم.. بـل تسـقطُ أمـام مـنْ يلبسـه مـن البـشر. البَـشريّ الـذي يلتحـمُ معـه حائـزُ تلـك المخطوطـة يَسـقطُ عشـوائيًا في غياهِـبِ الأزْمنـة دونَ وعـيٍ أو إدراكٍ كامـل.. يقـعُ عشـوائيًا في أزمنـةٍ مرتبطـة بمكانِـه أو ذكرياتِـه أو معرفتِـه.. وليـسَ هـذا هـو الخطـير في الأمـر، بـل الخطـر كلّـه يكْمـنُ في إعطـاءِ ذلـك البـشريّ المنتقـل عـبر الزمـن، القـدرة.. قـدرة اتخـاذ فعـل مـادي يغـيّر في وقائـع أمـور موقعـه الزمنـيّ.. قـدرة يسـتطيعُ "قائـظ" وبنـو جنسـه إيهابهـا -ببعـض التحضـيرات

التـي لا نعلمهـا أيضًـا- يسـتطيعون إيهابهـا للبـشريّ المختـار. محاولةٌ وحيـدةٌ مماثلـة قـامَ بهـا "قائـظ" في المـاضي، لكنّهـا لم تسـفرْ عـن شيء، كَـوْن البـشريّ المختـار آنـذاك حـينَ امتلـك القـدرة لم يفهـمْ ولم يفعـلْ أي شيء، فقـط أخـذ يرتجـفُ ويـصرخ.. قبـل أن تـؤول الأمـور إلى نِصابهـا ويُصفَّـد "قائـظ" في غياهـب سـجن مـا.

عندمـا انطلـق "واعـظ" في مهمّتـه، كان "قائـظ" في مـكانٍ مقـدَّسٍ في الأرض، تصـادف مـرور ثلاثـة شـباب بـه، وقـد التحـمَ فعليًّـا بـ"حـازم" بطلنـا الـذي لا يعـرف أنـه بطلنـا، والـذي يظـنّ نفسـه في حلـم.. ومـا هـو بحلـم.

التقـطَ "قائـظ" زمـامَ الأمـور، وحلّـق بـ"حـازم" في نِخِـل، عـبر أزمنـة تقـع فعليًـا في المـاضي، وشَرَعَ في رسـم بعـض الطلاسـم وتـلاوة بعـض التعاويـذ لاسـتحضار المقـدرة وإسـباغها عـلى "حـازم".

وإلى أن تكتمل تحضيرات "قائظ"، يحدث التالي لـ"حازم".

-٥-

يتجمد الوجود، ويصمت الصوت تمامًا عند "حازم"، إلا من "قائظ" الذي يضع يده على كتفه ويقول له بلهجة تقريرية:

- نِخِل.

لا يسمعها "حازم" بل يشعر بها في أعماق عقله، ولا يرى "قائظ" لأكثر من لحظة قبل أن يقع فعليًا تحت سلطانه، فينتزعه من جسده ويحلّق به صوب تلك المدينة، نِخِل، فيظن "حازم" أنه في حلم ويترك نفسه لمجريات الأمور، مع لمسة من النشوة تعتريه ولا يقاومها.

يشاهد "حازم" الموجودات أثناء تحليقه على ارتفاع بناية صغيرة بزاوية ميل ما، كأنه على برنامج "جوجل إيرث". يطير، أو يسحب أحدهم الخريطة من تحته. تظهر ملامح المدينة أخيراً من تضاريس ومبانٍ بدائية. فيبدأ في التحليق في مدار واسع حولها.. يضغط أحدهم زر "دوران" ويمسك طرف الخريطة العلوي الأيمن ويسحبها للأسفل فتدور من تحته، ويصيبه الدوار. يهبط "حازم" لأسفل بسرعة تقلقه.. أحدهم يدير عجلة الماوس للأمام بسرعة. تزيد سرعة هبوطه، وتقترب

الأرض وتبـدأ ملامـح الموجـودات في التجسـد والظهـور بتفاصيـل أكـثر. يزيـد قلـق "حـازم" الـذي أصبـح في رحلـة سـقوط حـر. مجنـون مـا يديـر عجلـة المـاوس للأمـام دورات متتاليـة كالمحمـوم.. يدفـع "حـازم" الهـواء بذراعيـه وسـاقيه كالمجنـون، يحـاول أن يصرخ فـلا يجـد صوتًـا. عـشرة أمتـار فقـط تفصلـه عـن الأرض.. الهـلاك يـأتي مهـرولاً.. سـتة أمتـار.. لاب...

طاخ.

لدهشـته، لا يسـتيقظ "حـازم" إن كان في حلـم، ولا يغـشى عليـه إن كان في واقـع.. يشـعر كغزالـة مـرّ فوقهـا قطيـع أفيـال. يريـد التـأوه، ولا يوجـد أي صـوت ينـوي أن يطيعـه اليـوم. يقلـب عينيـه لـيرى أنـه في وسـط ممـرات جبليـة مرتفعـة وضيقـة للغايـة.. نسـبة المـكان تقبـض قلبـه، ذلـك الارتفـاع الشـاهق الجبّـار والممـر المتناهـي الضِيـق الملقَـى بـه أرضًـا، يعطيـه شـعور الـدودة في شـق الأرض.

"إن لم أستيقظ قريبًا، سألتقط أنفاسي وأبحث عن مخرج".

يسـمع لهـاث شـخص يقـترب.. أم هـو صـدى صـوت لهاث شـخص يقـترب؟! يـتردد الصـوت مـن هنـا ومـن هنـا مقتربًـا.. ينتبـه "حـازم" ويكتـم أنفاسـه.. يقـترب صـوت اللهـاث.. يزحـف "حـازم" بجهـد ليلتصـق بشـق في الجـدار لا يواريـه.. صـوت اللهـاث يـأتي مـن هـذا الاتجـاه.. يخفـق قلـب "حـازم" بعنـف، ويلتصـق بالصخـر.. يقـترب كثـيرًا صاحـب الصـوت، أمتـار قليلـة تفصلـه عـن الظهـور..

يستعد "حازم" للتحامل والنهوض لملاقاة ذلك اللاهث.. يتوقف صاحب اللهاث عن الاقتراب، ويقع أرضًا مُصدرًا صوت ارتطام مكتوم.. ويبدأ في النهنهة.. يردّها الصدى.. تتحول النهنهة إلى نحيب شديد.. نحيب طويل حاد النبرات يختلط بصداه.. ينفجر صاحب اللهاث في بكاء هيستيري مع كثير من اللطم بعنف على الخد، ويستمر صدى الصوت في تجسيم المناحة بصوت دولبي.

يكتم "حازم" أنفاسه، ويتراجع وظهره يكاد يخترق الصخر.. لا يريد أن يصدر صوتًا.. يرجع رويدًا مترًا بعد متر.. يستدير ببطء.. ليجد أمامه مباشرة شخصًا ممزق الثياب أشعث الشعر واللحية، وعيناه تفيض دموعًا، تحولت للون البني جراء الغبار على وجهه.. ما أن يراه ذلك الأغبر حتى يمسكه من كتفيه ويهزه مرارًا وهو يتقافز في هيستيريا ويصرخ بكلمات غير مفهومة.

ينسى "حازم" في لحظة أي تعب بداخله، فيصرخ صراخًا طويلاً مستمرًا، أشد وأعلى وأصدق، ويدفع الأغبر ليخلّص نفسه ويجري بكامل طاقته دون أن ينظر خلفه. يجري كثيرًا، ويتعالى صوت الصراخ والنحيب من كل مكان.. ليس لاهثًا منتحبًا واحدًا.. ولا اثنين.. بل لاهثين باكين كثَّر.. ويضاعفهم عددًا وأثرًا ذلك الصدى الدؤوب.. يجري "حازم" ويجري في الشقوق الجبلية.. ليجد بعد حين، مفرق طرق.. ثلاثة شقوق أقلّ إضاءة، عليه اختيار الدخول في أحدها. لم تقتله الحيرة

فجميعهم سواء، والنحيب والولولة لا يتوقفان من جميع الاتجاهات. اختار الدخول في الشق الأيسر، وانطلق بسرعة مضاعفة، لينكسر الممر يمينًا وينحرف معه "حازم"، فيتصادف ظهور ثلاثة من المولولين فيصطدم معهم بعنف ويقعون جميعًا أرضًا. يظهر من ورائهم عدد أكبر منهم يأتي باتجاههم، يبدو أن النحيب هو لغة هؤلاء المخابيل.. يتقلب "حازم" أرضًا في مكانه عازمًا على الهروب للوراء، فيرى جماعة أخرى من النواحين الغُبر تسد عليه الطريق.

أجمل ما في الوقوع بالكامل في المآزق، أنه يريح من التفكير في أي مخرج.. يستسلم "حازم" صامتًا، يحاول أن يجارِهم في النحيب والنواح، فلا يطعه صوته.

- "أين ذهب ذلك اللعين؟!".

يراقبهم "حازم" يقتربون يحيطونه، فيرتمي أحدهم أرضًا ويخبط آخر رأسه في الجدار مرارًا إلى أن تدمي، ويحدّثه أحدهم، وهو ينتحب طبعًا:

- نستحق هذا.. وأكثر.

يفهم "حازم" كلمات اللغة الغريبة.. لكن صوته ما زال لا ينوي الظهور بعد.. لا تتبقى إلا لغة الإشارة.. يهزّ "حازم" رأسه موافقًا أنهم يستحقون هذا وأكثر.. وكأنما أعاد بموافقته تلك شحن بطاريات حناجرهم، فتعالى صراخهم بكامل طاقتهم من جديد.. إلى أن صرخ أحدهم بهستيريتهم الدائمة:

- يا موسى.. قل لربك قد ندمناااا!

موسى؟! شقوق جبلية؟! باكون يندمون؟!

أنا.. في.. هضبة التيه؟! مع هؤلاء؟!

هم رفضوا القتال مع موسى وهارون وقالوا لهما أن يذهبا مع ربهما ليقاتلا.. أما هم فإنهم ها هنا سيكونوا قاعدين.. لكن ما ذنبي أنا؟!

فليتيهوا في التيه أربعين عامًا.. فليندموا ثم يتوبوا ثم يُعفى عنهم ثم يَعصون من جديد فيُغضب عليهم فيُبتلون.. ما شأني في هذا؟!

يصمت أحدهم لأول مرة.. ويقترب من "حازم" وهو يتأمله مليًّا.. يتفحصه ويمسك ملابسه يفركها.. ويقول لـ"حازم" بصرامة:

-لست منا!

يتجمد "حازم" مكانه، ويتراجع فيلتصق من جديد بالجدار، فيصمت يهودي آخر ويقترب لتضيق المساحة الضيقة أكثر أمام "حازم"، ويقول الآخر:

-لست منا!

يصمتون جميعًا واحد تلو الآخر، ويضيقون الخناق حول "حازم" الذي أصبح بالكاد يتنفس، ويقول كل منهم:

-لست منا!

ليتبـدد نحيبهـم لأول مـرة في ذلـك التيـه، ويحـل محلـه الغضـب، وينقضّـون عـلى "حـازم".

-٦-

عدت من جديد لمراقبة الطريق الخالي من أي شيء. الطريق يبدو كأن من صممه أمسك بمسطرة ووضعها في منتصف خريطة سيناء ثم جرّ خطًا طويلاً.

وأخيرًا ظهرَت على مسافة، لافتة على جانب الطريق، لست من عشاق اللافتات بالطبع، لكن ظهورها في المشهد جعلها تبدو ونيسًا أليفًا سنمر بجانبه سريعًا. اقتربنا منها وقرأها "أكرم" كمحاولة لكسر ذلك الصمت، بصوت عالٍ وبدون أي انفعال، بفتح النون وتسكين الخاء:

- نَخْل.

فقلت له مصحِّحًا، بكسر النون والخاء:

- نِخِل.

ظنّ "أكرم" أنني أمزح، فنظر إليّ متسائلاً. لا أذكر متى ولا أين قرأت تلك المعلومة، لكن أجبته عمومًا:

- زمان سمّوها نِخِل، عشان رملتها ناعمة جدًا، كأنها متغربلة

مـن منخل.

قبـل أن يهـز رأسـه قـال "عمـر" الجالـس بالخلـف فاتحًـا سـاقيه بعـرض الكنبـة كلهـا، عاقـدًا ذراعيـه عـلى صـدره، نصـف مغمـض العينـين:

- غلط.. اسمها نَخْل.. زي ما قلت إنت يا "أكرم" في الأول.

علاقـة "عمـر" بالمعرفـة العامـة علاقـة كاملـة الانقطـاع، فالتفـتّ لـه بفضـول وحـذر طالبًـا توضيـح، فقـال بهـدوء:

- اسمها نَخْل.. عشان دي سفرية بلح أساسًا.

"لعنة الله عليك يا عمر!".

لم أسـتطع كتـمان الضحـك الـذي شـاركني فيـه "أكـرم"، وتبادلنـا فاصـلاً مـن السـباب واللعنـات قبـل أن نعـود ثلاثتنـا لقواعـد الصمـت سـالمين مـن جديـد. قرابـة سـاعة أخـرى مضـت ولم يتغـير أي شيء إلا الأغـاني التـي فقـدت كثـيرًا مـن بهجتهـا. كلّ منـا يفهـم الآخريـن تمامًـا.. لا داعٍ لمحاولـة بـدء أي موضـوع أو التظاهـر بالتفـاؤل أو الإيجابيـة.. لنستسـلم في هـدوء للصمـت والرمـال والملـل. إلى أن تكشَّـف لنـا فجـأة في الأفـق مشـهد قلَـب أحاسيسـنا رأسًـا عـلى عقـب مـن دون إنـذار. كانـوا واقفـين بالعـرض قاطعـين المشـهد والرؤيـة والطريـق وسـيناء.. كانـوا واقفـين كأبطـال عظـماء جبابـرة شـامخين كالأوتـاد العملاقـة.

جِبَال!

-٧-

شهقة طويلة صادقة من الأعماق انطلقت من جوف "عمر".. "أكرم" سقط فكه متدليًا.. وأنا دمعت عيناي، ولم أدرِ السبب. هيبة لا تصفها كلمات.. شموخ يجبرك على الانحناء، ذلك الذي يفيض من الجبال التي تجلّت أمام أعيننا معترضة مشهد السماء والصحراء والطريق المستقيم البائس.

لا إراديا خَفض "أكرم" سرعة السيارة، واستمرينا في الاقتراب من الجبال المقدسة، ومع كل متر إضافي كنا نقترب، كانت الجبال تزداد شموخًا ووضوحًا .. تكاد تفاصيل نتوءاتها وانحناءتها أن تنطق.. يتخلل صخورها العملاقة المتراصة عشوائيًا بنظام -نعم، عشوائيًا بنظام- يتخللها ارتدادات طولية بارتفاع الجبل كاملاً.. وبعض هذه الأخاديد الطولية يتخذ ألوانًا رائعة مغايرة للون الجبل الأصلي، ليست درجات من البني والأصفر فحسب، بل اتجهت في بعض الأخاديد إلى الأخضر البترولي والأحمر النحاسي، بما في ذلك صخور وأتربة تلك الردود الجبلية.

صرنا على بُعد أمتار قبل أن يخترق بنا الطريق تلك البوابة الجبلية المهولة، فنطقت الشهادتين، لا خوفًا بل إجلالاً.. وأخذ

"عمـر" يـردد تسـبيحًا.. وحبسـنا أنفاسـنا.. تـكاد الجبـال أن تُخـرج ذراعـين مفرودتـين عـن آخرهـما احتفـاء بدخولنـا.

التـوى الطريـق ولففنـا معـه، لتنكشـف أمـام أعيننـا أجمـل لوحـة طبيعيـة مجسـمة رأيناهـا أبـدًا.. سلاسـل جبـال وراء جبـال أمـام جبـال بجانـب جبـال.. بعضهـا يتلاحـم وبعضهـا يعلـو بعضًـا وبعضهـا يقـف منفـردًا.. أمـا الطريـق المسـتقيم البائـس فقـد دبّـت فيـه الـروح أخـيرًا وصـار يتلـوّى وينحنـي وسـط الجبـال انحنـاءت شـديدة للغايـة، بعضهـا يجـبرك عـلى الـدوران لقرابـة المائـة وثمانـين درجـة.. وكأن الطريـق يجبرنـا عـلى الطـواف والالتفـاف حـول الجبـال لنشـاهدها وتشـاهدنا مـن جميـع الزوايـا.. شـعرت أن كل جبـل نجتـازه يديـر عنقـه ويلـوي رأسـه ناحيتنـا إلى أن نغيـب عـن نظـره.

كـسَرَ "عمـر" حاجـز الصمـت المهيـب بصـوت مرتعـش جاهـد كي يخرجـه مـن فمـه، طالبًـا أن أغلـق الـسي دي.. فانتبهـت أنـه يـدور أصـلاً، ومـا كان صوتـه يتجـاوز أذني الخارجيـة.. فغمغمـت مـا معناه أن الصمـت أفضـل فعـلاً وأكـثر ملاءمـة لمـا نحـن فيـه، وأخرجـت الـسي دي، ليُخـرج "عمـر" مـن ميداليـة مفاتيحـه ذاكـرة مؤقتـة (فلاشـة) ويعطينـي إياهـا دون كلـمات.. ودون رد منّـي وضعتهـا في مكانهـا المخصـص بكاسـيت السـيارة، رغـم رغبتـي في عـدم سـماع أي شيء في العـالم الآن، لكـن لا مجـال لأي جـدال كذلـك.. ومـا أن بـدأت الفلاشـة اللعينـة في تشـغيل الأغـاني المخزنـة عليهـا، وقبـل أي كلمـة اعـتراض مـن جانبـي قـال "عمـر" كالمسـحور:

- هات تالت فولدر.

نظرت إلى "أكرم" لأجده في حال غريبة من الانبهار والصمت واتساع الجفون.. ضغطت الزر المطلوب مرتين ففتح الكاسيت ثالث مجلد داخل الفلاشة، ليكتب الكاسيت اسمه لثوانٍ قبل أن يلعب أولى أغنياته. كان اسم المجلد "بودا بار". فقال "عمر" الذي تمنيت ألا يزيد حرفًا:

- هات رابع أغنية.

وبعد أن ضغطت الزر المنشود ثلاث مرات، بدأت تلك الأغنية الرابعة المسماة "Spiral Dance". وكأنما فُتحت أبواب السماء. ما كان ينقصنا إلا تلك فعلاً.. بدأت تلك الـ"أغنية" بنداء طويل عميق غير محددة كلماته إطلاقًا، لكنه نداء صادق.. صادق للغاية ونابع من قلب أولئك المؤمنين بالحقيقة. لم يكن نداء استغاثة أو احتفال أو عويل، بل كان كنداء من سيخبرك بكل ما لم تعلمه من قبل. لو نطقَت الجبال فأنا أقسم أن صوتها لن يختلف كثيرًا عن هذا الصوت.. بعد هذا النداء الطويل توالت الطبول في القَرْع تصاعديًا في رتم مهيب.. رتم يدعو، بل يأمر بالاصطفاف والخشوع.. والطريق يأخذنا ذات اليمين وذات اليسار.. ثم بدأ المنشدون في تلك الأغنية، في التمتمة.. همهمة.. زفرات عميقة وقوية وخاطفة.. كأنهم ينفثون الروح خارج أفواههم لتبتعد عنهم سنتيمترات قبل أن تخترقهم عائدة من جديد.. والجبال حولنا صامدة، تراقبنا، وتحمينا من كل الشرور.

هنـا سر الكـون ومنبـع الحقيقـة ومهـد الحضـارات العظيمـة. ثـم بـدأت همهـمات المنشـدين وزفراتهـم في التحـول إلى تكبـيرات وتسـبيحات صريحـة.. تكبـير مـن قائـد المنشـدين، وفي الخلفيـة -بالتـوازي مـع صوتـه العـذب المعـترف بالذنـب- تسـتمر الهمهـمات ودقـات الطبـول.

"أنا أُولد من جديد!".

ومـا أن انتهـت تلـك الأغنيـة الملحميـة حتـى امتـدت يـدي تلقائيًـا لتضغـط زر إعـادة التشـغيل، ولم أسـمع إلا أنفـاس صديقـيّ قبـل أن تبـدأ الملحمـة مـن جديـد، ونحـن مـا زلنـا كـما نحـن تتقاذفنـا الجبـال باسـطة سـطوتها الكاملـة عـلى كل ذرة في كياننـا الضعيـف.

- اللّاااااااه!

انطلقـت تلـك مـن "عمـر" وهـو يتلـوّى حرفيًـا مـن فرط النشـوة.. "أكـرم" لم يكـن معنـا، كان يأرجـح رأسـه ببـطء يمينًـا ويسـارًا تناغـمًا مـع المشـهد والمسـمع.. وأنـا تفتّـت أجـزاء جسـدي والتحمـت في كل دقيقـة عـشر مـرات.. بينـما المنشـدون لا يتوقفـون عـن التسـبيح والتهليل.

- هُووووه.

وجبال.

- هِمْممم.

وجبال.

- حَيّ.

وجبال.

- الله أكبـ"هُووووه.. حَيّ.. هُووووه"ـر.

الله أكبر.

لاااا إله إلاااا الله.

وجبال.

ساعتان -غالبًا- مرتا علينا ونحن على هذه الحال، التحمنا خلالهما بالجبال والإنشاد تمام الالتحام. ساعتان تمّت فيهما إعادة هيكلة كاملة لتكويناتنا الجسدية والمادية والروحية والفكرية والمعنوية والنفسية والعاطفية والفلسفية.

-٨-

ينقـضّ اليهـود العالقـون في التيـه لأربعـين عامًـا عـلى "حـازم".. الـذي يظـل عـلى يقينـه الخاطـئ أنـه في حلـم وينتظـر الاسـتيقاظ، فـلا يسـتيقظ. إذن فلينتظـر الهـلاك القـادم لا محالـة، غالبًـا سـيمزقونه بأيديهـم بعـد أن يحوّلونـه إلى كُـرَة يلعبـون بها وتسـليهم في أعوامهـم الطويلـة، ويدحرجونهـا عـبر الشـقوق وهـم يركلونهـا ويجـرون وراءهـا، وهـم ينتحبـون كعادتهـم.

- لست منا!

يقولهـا كل واحـد منهـم، ويبـدؤون الانقضـاض جميعًـا عـلى "حـازم" الـذي ينكمـش في نفسـه ويـداري وجهـه وصـدره بذراعيه.. تهتـز الأرض بعنـف.. يتصاعـد تزلزلهـا بسرعـة.. ثـم تتشـقق فتُفتـح.. ويختفـي كل هـذا، ويهـوِي "حـازم" في فراغ كامل.. يسـتمر سـقوطه لوقـت طويـل دون أن يـدري أيـن المسـتقر.. يتنفـس الصعـداء عـلى نجاتـه مـن تيـه الهضبـة، ويتسـاءل بينـه وبـين نفسـه عـن ميعـاد اسـتيقاظه أو ارتطامـه بـأي أرض.. فيصطـدم بالفعـل بـأرض صحراويـة، بعنـف كاد يحطـم عظامـه.. يتـأوه "حـازم" منهـكًا.. بالـكاد يفتـح عينيـه ليـدرك أنـه في ظـلام ليـل كثيـف النجـوم عديـم

القمر.. بالكاد يصدر منه أنين واهن.. يسمع أصواتًا بالقرب منه، أصوات مجموعة من الحيوانات منهمكة في التهام فريسة ما.. ببطء يجول ببصره في المكان ليخترق ظلامه.. يستطيع الآن تمييز تلك الكتلة الضخمة السوداء.

قرابة عشرة ضباع منكبّة على تمزيق لحم جثة جمل ضخم.. يجاهد "حازم" من جديد ألا يصدر أي صوت.. يحاول النهوض فلا يطعه جسده المنهك.. يشعر بأنف حيوان ذات شعيرات منتصبة تتشممه وتتحسس ما تحت رأسه من الخلف.. يسمع أنفاس ذلك الحيوان وهو يتشممه مليًّا، ويحوم مِن حوله ليكمل فحصه.. هل يمثّل أنه ميت، أم يقظ ويدّعي القوة؟ يقف الحيوان أمامه واضعًا رأسه قبالة رأس "حازم".. تلتمع العينان الحزينتان لذلك الضبع في الظلام.. ويعوي في وجه "حازم" الذي يكاد يتجمد.. يأتي ببطء زميل آخر للضبع ممسكًا بقطعة من اللحم تتدلي من فكه، وقد لوّثته بدماء طازجة زادته قبحًا على قبح.. يظهر زميل قبيح آخر من وراء ظهره الأحدب قادمًا ليشارك المأدبة الجديدة.

"كابوس.. هذا حتمًا كابوس".

يسمع "حازم" صوتًا آدميًا قادمًا من بعيد، تنتبه له الضباع وتتحفز.. تكشف عن أسنانها مقدَّمًا لذلك العابر القادم.. وكأنها آمنت شر "حازم" تمامًا ولا تعيره أهمية، لا يقلق أحد من أي قطعة لحم على سُفرته.. يقترب الرجل الذي يجرّ

جملين صامتين كالنباتات، ويرى المشهد فيهشّ الضباع بأصوات كالزمجرة، مع إلقاء الكثير من الطوب عليها.. تصيب "حازم" إحدى الأحجار في رأسه فيكتم الصراخ ويلعن الرجل في سرّه، وتبتعد الضباع بالفعل.

يساعد الرجل "حازم" على الجلوس، ويتحسس "حازم" رأسه، ويأخذ الرجل قربة ماء يسقي منها "حازم" الذي يبدأ في استرداد عافيته.. ويسأله الرجل:

- هل أنت من الحجاج؟

حجاج في سيناء؟

يومئ "حازم" برأسه أن نعم، فيساعده الرجل على النهوض ويجعله يمتطي أحد الجملين ويحدّثه أثناء سيرهما أن الأمور لن تكون مستقبلاً أبدًا كما هي الآن، وأن القلعة على وشك الاكتمال.. وأن السلطان "قنصوة الغوري" يشرف بنفسه على مراحلها النهائية، وأن القلعة ستكون محطة استراحة خمس نجوم للحجاج الذاهبين والعائدين. و"حازم" طوال كل هذا لا يردد إلا كلمتين:

- نعم.. نعم.

يسمعان أصواتًا من جديد، ولا يُعيرها السقّا -الذي يبدو أنه سقّا- أي اهتمام.. تقترب الأصوات، ويتضح أنها قافلة لأناس يبدون من ملامحهم وهيئاتهم أنهم ليسوا من هنا بأي حال.

يستمر السقا في مسيره، بينما يتوقفون هم وتحفّز وقلق كبير يبدو على وجوههم. يقترب منهم السقا ويوقف جمليه ويسألهم:

- هل أنتم من الحجاج؟

تسري همهمات وصرخات مكتومة فيما بينهم، ويقول كبيرهم والخوف يكسوه:

- نعم، دعنا نمرّ.. في سلام.

يطمئنهم السقا -الذي يبدو كسقّا- أنه لا ينوي شرًا، بل ويدعوهم إلى القلعة التي قاربت على الانتهاء، بينما يرى "حازم" بعض الصلبان المعلقة بسلاسل في صدورهم، والسقا يؤكد لهم أن القلعة ستكرمهم، وهم لا يكتمون قلقهم ويسألونه عن أبعد طريق عن القلعة يمكنهم اجتيازه، فيصفه لهم ولسان حاله يقول لهم "براحتكم، إنتو الخسرانين".. ويمضي كل منهم في طريقه. فيسأل "حازم" السقا بأقل عدد ممكن من الكلمات:

- حجاج؟ للقدس؟

- لا.. إنهم أوروبيون متجهون إلى دير سانت كاترين.

يستمر السقا في جرّ الجملين وهو يصف لـ"حازم" القلعة، ويؤكد له أن الأمور لن تكون أبدًا كما هي الآن، وأن السلطان قنصوة الغوري يشرف بنفسه على مراحلها النهائية، و"حازم"

لا يكف عن الترديد:

- نعم.. نعم.

وأخيرًا يصلا إلى سور المدينة ويدخلانها ويسيران في ممراتها إلى أن يصلا إلى القلعة، التي يبدو فعلاً أنها قاربت على الانتهاء، ورغم سواد الليل، فالعمل يسير على أشُدَّه بمساعدة مشاعل كثيرة.. وتستطيع أن تميز السلطان بسهولة من شموخ وقفته وخشوع كل من حوله. يوزّع السلطان تعليماته وأوامره هنا وهناك. ينتشر الخبر بين العمال عن وصول السقا فيتحركون بنظام، خمسة عمال فخمسة عمال، يشربون ويعودون. يمشي قنصوة الغوري ببطء واضعًا قبضتيه في وسطه وهو يتابع اللمسات الأخيرة لاستراحة الحجاج، ويتجوّل بعينيه في أرجاء المكان لتصطدم عيناه بعينيّ "حازم" مباشرة.. يحدق فيه بثبات، ويرفع سبابته في الهواء قليلاً، فيظهر رجل قوي الشكيمة والجسد والمظهر يأتي مهرولاً.. يهمس السلطان في أذنه بكلمتين وهو يشير إلى "حازم"، فيهرع الرجل ومن ورائه فرقة مسلحة برماح نحوه. يكاد "حازم" يرفع ذراعيه في الهواء ليستسلم، لكنهم كانوا أسرع وأسقطوه أرضًا ووضعوا رماحهم في جنباته وظهره مع الضغط.. يشعر "حازم" أنه لو تنفس ستخترقه أسنّة رماحهم.. يقترب منه الرجل، ويقول له بغضب:

- تلك هي المرة الثانية.. لكنها الأخيرة.. دمك جزاؤك الكَرّة الآتية.

- "ماذا فعلتُ في الأولى؟!".

ثم يأمر ذوي الرماح أن يطردوا "حازم" خارج المدينة، فيلقي "حازم" نظرة أخيرة للسقا الذي يبدو كسقا، فيودعه مؤكدًا له أن الأمور لن تكون مستقبلاً أبدًا كما هي الآن. فيقتاد المسلحون "حازم" للبوابة ويلقونه خارجها.

بمجرد أن يقع "حازم" أرضًا ويتوقف عن التدحرج، حتى يرى التوقيت صار نهارًا، ينهض سريعًا لاستطلاع ذلك الضجيج، ليرى فوضى عارمة.. فلول جيش مذعورة تهرول هربًا، مسلّحة ببواقي بنادق قديمة ومدافع ذوات عجلات وخيول وسيوف وأعلام ممزقة.. جيش مهزوم بكل معاني الكلمة. تدوي في رأس "حازم" المعلومات، أنّ هؤلاء هم جيش مشترك يتألف من الدروز والأتراك معًا، دخل مصر في الحرب العالمية الأولى ليحارب محمد علي، فقام معه الجيش المصري باللازم ويزيد. تقترب من "حازم" الفلول الهاربة المضطربة، ويمسكه أحدهم يصيح كالمجانين بلغة غريبة:

- أمسكت جنديًا.. أمسكت جنديًا!

يكثر من حول "حازم" الجنود المرتبكون، ورعب جليّ يسيطر على حركاتهم.. يبدون كمن لا يفكرون سوى في الهروب.. كل منهم يحلم الآن بالعودة إلى منزله برأسه فوق عنقه.. يظهر مهرولاً قائد لهم، أعلى رتبة.. يطلعونه على "حازم" الأسير الجديد.. ينظر إليهم بغير اهتمام.. ويقول بارتباك:

- اقتلوه.. اقتلوه ودعوه وشأنه!

ثم يكمل ركضه هاربًا، ويخرج أحد الجنود المطيعين سيفه من غمده، وينوي أن ينفّذ أمر قائده، فقط ليتفرغ لمبتغاه الأساسي، الهروب إلى الديار.

يمسك أربعة جنود آخرين أطراف "حازم" بتوتّر، ويجذبونها كلٌّ في ناحية، ليصبح "حازم" كالدجاجة المخلية من العظم قبل شيّها على الفحم.. ويرفع الجندي ذو الأعين الزائغة سيفه عاليًا باضطراب، ويهوي به إلى عنق "حازم".

-٩-

بعد خروجنا من ملحمة الجبال، والغسيل الروحاني، كنت واثقًا أننا تغيرنا بالكامل.. تغيرنا للأبد. لا أعلم تحديدًا ماهية تلك التغيرات، لكنها حدثت.. أراها بداخلي وأسمعها.

استقام الطريق الذي يصاحبنا من زمن، بعدما تلوّى كثيرًا عبر سلاسل الجبال. سرنا قرابة عشرة كيلومترات قبل أن يسطع علينا مشهد خلّاب آخر، البحر ببساطة.. لكننا كنا على مرتفع فرأيناه ممتدًا من زاوية علوية رائعة، وانتهى بنا الطريق بطريق آخر عمودي عليه اتجهنا منه يمينًا نحو دهب، فإذا بالطريق يرتفع بنا بزاوية ميل في منتهى الحدة.. زاوية حادة للدرجة التي أشك في استطاعة أي سيارة أن تصعدها بسهولة. رويدًا اختفى البحر من يسارنا وحل محله سلسلة جبال جديدة، استمرت متصلة إلى أن وصلنا بوابة دهب بالفعل، بعد أن جاهدت السيارة في التسلق وجاهد "أكرم" في التحكم بها.

بعد السؤال وطلب العون وصلنا إلى منطقة الشواطئ، دهب صغيرة على أي حال، لن أطيل عليك في تفاصيل ما حدث وما رأيناه، لكن باختصار، كرهناها من أعماق أعماقنا. كان المشهد

وكأن مهرجانًا عالميًا يضم كل بلدان العالم تم نصبه هناك.. كمّ البنات غير عادي.. البيكيني هو الزي الرسمي.. الشباب يرقصون في كل مكان.. موسيقى صاخبة أينما تذهب.. لا يوجد موتوسيكل مائي بالطبع، عرفنا أن السبب كي لا تتأثر الشُعَب المرجانية.. لكن البيتش باجي موجود بغزارة، بغرض السفاري.

فندق وراء فندق وكامب وراء كامب، ولم نجد غرفة واحدة خالية. كنا نسأل دون اكتراث بالأساس.. كانت كل مكونات دهب هي ما نبحث عنه بالضبط.. لكن هيهات.. كان هذا قبل التحول الجذري المورفولوجي الكوني الأيوني الذي تعرضنا له في أواخر طريقنا إلى هناك.

بعد ساعة من البحث الفاتر وجدنا ثلاثة أسِرّة في عنبر يضم ثمانية، في كامب بسيط.. تتميز دهب أنها متفاوتة المستويات بشدة.. تتدرج فيها مستويات المعيشة من الشاطئ المجاني الذي لا صاحب له، الذي أخبرَنا "عمر" عنه، إلى كامبات متفاوتة المستوى هي أيضًا، إلى فنادق من نجمتين إلى خمس نجوم.

لم نجد غير تلك الأسرّة الثلاثة ورفضنا بالطبع.. ولم يعجبنا الشاطئ المجاني.. ولم يعجبنا أي شيء. كنا في حالة من الإرهاق رهيبة، لكننا لم نستسلم لها ولم نقبل قضاء تلك الإجازة المسكينة في مكان لا نرغبه. تبقّت معنا رصاصة واحدة، سنذهب إلى طابا، ونقبلها كيفما ستكون.. لم يعد لدينا طاقة للمزيد. كان الخوف

فقط من ألا نجد فيها أماكن شاغرة. تعرّفنا إلى شاب بدوي لطيف بسبب سؤال من "عمر" عن حشيش. كان ذلك البدوي ودودًا جدًا، وإن لم يكن "ديلر".. تجاذبنا أطراف الحديث وعرف موقفنا وحالنا بالتفصيل.. هزّ رأسه بتفهم كامل عندما حكينا له عما فعلته فينا الجبال. وبعد أن انتهينا، عرف أننا نطلب النصح في تلك الأرض المجهولة. نصحنا بتجاهل طابا وحدّثنا جازمًا عن المكان الصحيح الذي ينبغي علينا الذهاب إليه والارتماء في أحضانه. قال إنه مكان يقع في نويبع الواقعة بين دهب وطابا.. اسمه "راس شيطان".

راقنا الاسم، ولم نسأله عن تفاصيل المكان قدر ما سألناه عن موقعه بالضبط، "أي حاجة وخلاص".. فأخبرنا أنه بعد نويبع بخمسة كيلومترات، أي خمسين كيلومترًا من دهب، وأخبرنا بعلامة مميزة للغاية نستدل بها على المكان: مدرعة شرطة!

سألناه متعجبين من الاستدلال على مكان بسيارة، فضحك وأكّد لنا أن نثق فقط في كلامه، خصوصًا أن راس شيطان لا لافتة تدل عليها، ولا هي ظاهرة من على الطريق.. فقط المدرعة والتبّة من ورائها.

لا بأس.. هي في طريق طابا بالأساس.. لنرَ.

ودّعناه، وتركنا دهب منهكين، غير آسفين بالمرة.

انعكس ميل الطريق ليكون منحدرًا ساحقًا لا توصف خطورته.. نسيت أن أقول إنه اتجاهان دون فاصل بينهما،

بالكاد حارة مرورية لكل اتجاه.. اللافتات التحذيرية كل مترين تقريبًا، معظمها يؤكد ضرورة أن تجعل تروس السيارة "معشّقة" على سرعة مناسبة، بأن تجعل "الفتيس" على الثاني أو الثالث.. وَضْع الفتيس على الـ"مور" يساوي كارثة أكيدة.. لكن "أكرم" كان سائقًا ماهرًا فعلاً.. وانتهى بنا المنحدر المرعب لنر البحر من جديد، ونستمر في الطريق بمحاذاته.

نويبع.

أهلاً وسهلاً.

استمرينا.. وضاق الطريق.. وترقبنا.. وظهرت المدرعة.

فهمنا لماذا استخدمها زين البدوي في وصف المكان بثقة، هي ببساطة منزوعة الإطارات. تستطيع أن تعتبرها نقطة شرطة ثابتة، مكوّنة من ضابط شرطة شاب وبعض العساكر المسلحين وعسكري يمسك بآلي يبرز من فتحة في أعلى المدرعة، وكان من ورائهم تبة بالفعل.. ومنحدر ترابي وحيد يقودك إلى الارتفاع فوق تلك التبة الصغيرة والاتجاه نحو البحر حيث راس شيطان. رحلتنا تضاريسية بحتة حتى الآن.

ألقينا السلام على الضابط الذي ردّه برتابة استغربناها، توقعنا منه أن يستوجبنا بخصوص أي شيء من باب التسلية بدلاً من ذلك الجلوس الصامت الذي يبدو أنه يطول.. ذلك أفضل عمومًا.

صعدنا التبة بسيارة "أكرم" البطلة.. واستوت الأرض.. فوجدنا بوابة بدائية من عارضة ترفع كالشادوف. وقبل أن يضرب "أكرم" نفير سيارته رأينا شخصًا بسيطًا خرج من كوخ جانبي ممسكًا بكوب من الشاي، ورفع تلك العارضة دون أي كلمة.. لم ينظر إلينا حتى.. فقط ارتشف رشفة طويلة من الشاي، إلى أن عبرنا وأعاد العارضة لمكانها وأعاد جسده إلى الكوخ.

بدأت ملامح المكان تتضح، أشجار قليلة.. أرض مستوية يحدّها يمينًا جبل شاهق عريض يصل إلى شاطئ البحر الذي لم نره بعد، وكأنه يضع حدًّا لذلك المكان الذي يستحيل بالفعل أن تراه مصادفة، ما لم يدلك عليه أحد، ويسارًا سور بدائي مصنوع من الخوص، وأمامنا انتهى الطريق، ترجّلنا وسرنا باتجاه البحر.. ليعترض طريقنا مبنى صغير من الطين، التففنا حوله وصرنا أمامه.. في قلب المكان صرنا.. "زين" كان محقًا.. فهمنا كل شيء.. زالت عنا هموم الدنيا.. شعرنا بالطمأنينة والألفة.. تنفسنا وارتحنا ووجدْنا المكان وأنفسنا، ووجَدَانا.. ما كنا لنريد أكثر من هذا.

إذن، ذلك هو الاختيار.

"راس شيطان".

-١٠-

- أمسكت جنديًا.. أمسكت جنديًا!

- اقتلوه.. اقتلوه ودعوه وشأنه!

ثم يكمل ركضه هاربًا.

يرفع الجندي ذو الأعين الزائغة سيفه عاليًا باضطراب، ويهوي به إلى عنق "حازم" الذي يصرخ ولا يطاوعه صوته من جديد، وتتزلزل الأرض من جديد، وتنشق الأرض من جديد، ويهوي في فراغ جديد من جديد.

يؤمن "حازم" أن هذا أطول كابوس مر به في حياته، ونقسم نحن له أنه ليس بكابوس. يهوي بسرعة مهولة في العدم، إلى أن تقل سرعة هبوطه إلى العُشر فجأة، وتتحول رحلة هبوطه إلى انسياب ناعم. تظهر النجوم في السماء، ويبدأ "حازم" في الاستمتاع بذلك الهدوء النسبي والانزلاق الهادئ في الهواء. يرى على مقربة منه جسدًا آخر يهبط بنفس السرعة تقريبًا، رجل يرتدي مظلة باراشوت. يتحسس "حازم" تلك الحقيبة على ظهره ليجدها مربوطة بأحبال، فينظر إلى الأعلى ليجد أنه

يتـدلى مـن مظلـة هـو أيضًـا.

تظهـر الأرض السـوداء أخـيرًا، ويقـترب منهـا بسرعـة معتدلـة.. يعلـم أنـه لا يعلـم أصـول الهبـوط بالمظلـة، فيقـرر بالفطـرة الركـض باتجـاه ميـل هبوطـه بمجـرد ملامسـة قدميـه لـلأرض.

يصـل لـلأرض في جنـح ظـلام الليـل، فيمتـص الصدمـة بالجـري في الاتجـاه المذكـور، بنفـس تكنيـك القافزيـن مـن الأوتوبيـس أثنـاء سـيره. تفكـير سـليم، لكـن تنقصـه خطـوة مهمـة، كان عليـه بعـد امتصـاص صدمـة الهبـوط وتجنـب التـواء الكاحـل أو كـسر عظمـة الفخـذ، أن يلتـفّ ويعـود سريعًـا للمظلـة نفسـها ليطويهـا بسرعـة، كي لا تسـتقبل الهـواء كالمصيـدة وتحتويـه لتتحـول بعدهـا إلى زحافة جـرّ ذات قـوة جبـارة، وهـو مـا حـدث فعـلاً.. بعـد أن ركـض لأمتار.. تجـذب الأحبـال "حـازم" بشـدة لتطرحـه أرضًـا، ويشـعر بعدهـا كأن قطـارًا توربينيًـا يسـحله للخلـف.

بعـد الزحـف لأمتـار كثـيرة، لحسـن حظـه تتعلـق أحبـال المظلـة بصخـور كبـيرة وتتوقـف رحلـة السـحل. يتحسـس "حـازم" حزامـه ليجـد خنجـرًا حـادًا، فيسـحبه ويقطـع بـه الأحبـال، ليتحـرر أخـيرًا.. يتحامـل ويجلـس عـلى صخـرة قريبـة، ويفتـش داخـل حقيبتـه فيعـثر عـلى زجاجـة ميـاه ليـشرب منهـا، إلى أن يشـعر بيـد قويـة تربـت عـلى كتفـه، فينظـر مـن مكانـه ليجـد أمامـه شـخصًا يعرفـه جيـدًا.. هـو في شـبابه الآن، رغـم أن "حـازم" يعرفـه كهـلاً.. لكنـه يعرفـه حـقًا.. نسـبة الخطـأ في التعـرّف عـلى هـذا الشـخص تسـاوي

صفـر رغـم الظـلام.. يعـرف "حـازم" يقينًـا أنـه وجهًـا لوجـه مـع "أرييـل شـارون".

وهنا كانت البداية الفعلية للعبث.

-١١-

وَفي أَثْناء كُلّ هذا، في أبعادٍ زمنيةٍ ومكانيةٍ أُخْرى، يَقِفُ "قائظ"، الّذي هوَ صُورة طِبْق الأصْل شَكْلاً مِنْ "واعظ". اختلافاتهما رُوْحيّة وعَقَائديّة فَحسْب.. مَع اختِلافِ نَوايَا مَهامّهما بالطّبْع، منذُ بِدْء الخلْق حتّى الآن. يقِفُ "قائظ" مُحاطًا بمشاعِلَ كَثيرة، وأَمامه تِلك المَخْطُوطَة مَفْرودة تتعلّق في الهواء، إنْ كَانَ هذا هَواء. ويقِفُ مِنْ حَوْلِه جنودُه كالحُرّاس، مُولينَهُ ظُهورَهم، وهو منهمكٌ فيما يفعل.

يَضعُ أَشْيَاءَ وأَشْيَاءَ على المَخْطُوطَة، ويُبَعْثِرُهَا. يَبْدو عَليْه غَضبٌ ما، كَونه لم يحقّق ما يريد. يمسكُ ما يشبهُ ساعةً رملية، يُقلّبها.. يَرُجّها.. يَفتحُ غِطَاءَها.. يَنثرُ بعضًا مِنْ رِمالِها على المَخْطُوطَة.. ويَتلو أَشياء.. ويُبَعثِرُ أَشْياء. تَبدو مُهمّته ليست بتلك السّهولة. نَجَحَ فَقط إلى الآن في إلْقاء "حازم" في غَياهِب زَمنيّة.. لَكن هذا جُزء سَهل يحدثُ كثيرًا، ويظنّه البشرُ أحلامًا، وينسون معظمها عندما يعودون. الجزء الصعب هو إيهاب القدرة والإرادة لـ"حازم" داخِل حلمه المفترَض.

عمومًا، يقتربُ "قائظ" كثيرًا من تحقيق ما يريد.. يقترب جدًّا.

-١٢-

يقف "حازم" أمام "شارون"، تختلجه مشاعر كثيرة، بينما يقف "شارون" قوي الشكيمة بهدوء وثقة، وثمّة حماس كبير يشعّ من عينيه القبيحتين. يسأل "شارون" "حازم" بالعبرية، فيفهم بسلاسة كاملة:

- هل أنت بخير؟

ينقبض قلب "حازم" أكثر، وينظر إلى ملابسه ليجد إجابة سؤاله الذي لم يسأله.

"جندي إسرائيلي؟!".

يرفض التمادي فيما يظنه حلمًا أكثر من هذا.. ويرفض أي حديث مع هذا الـ"شارون" تحت أي مسمى.. يرفض نفسه أساسًا بهذا الزيّ وتلك الصفة.. ويجد نفسه يجيب سؤال "شارون" بالعبرية أيضًا ودون أي تحكم منه:

- أنا بخير.. في انتظار تعليماتكم.

ينزعج "حازم" بشدة، ولا يجد مخرجًا سريعًا من ذلك المشهد

المقبض.. يطلق السباب بكثافة، بصوته الذي لا يخرج، ويقرر أن يتحامل ويصبر إلى أن تتزلزل الأرض وتُفتح من جديد، ليهوي في أي زمان أو حدث آخر.. لكن شخصيته الجديدة وتلك اللغة وتلك الرفقة وذلك الحدث يقبضون قلبه حقًا.

يأتي بهمّة المظلّي الآخر الذي تتضح ملامحه الآن، بعد أن أتمّ هبوطه بنجاح على مقربة منهما.. يؤدي التحية العسكرية لـ"شارون" الذي يطمئن عليه بدوره، ويأتي ثالث.. فيقفون صفًا أمام قائدهم الذي يقسّم المكان جغرافيًا إلى ثلاث مناطق، يتولَّى كل منهم فيها تلقّي المظليين الآخرين المنتظَرين، وتجميعهم جميعًا عند نقطة التقاء أمرهم بها بعد أن أخرج الأربعة بُوصلاتهم. كانت تلك النقطة تبعد ثلاثة كيلومترات عن موضعهم، في نِخِل.. أمام ممر متلا.

"كل هذا حدث في نِخِل؟".

ينطلق ثلاثتهم بالفعل، كلّ إلى منطقة تكليفه. بمهارة واحترافية وتحركات محمومة وكلمات قليلة بصوت خفيض، يجمّع "حازم" المظليين الذين هبطوا في محيط مسؤوليته بالعشرات.. يكثر الهابطون من السماء ويعيدون ترتيب أنفسهم ويصطفون تحت قيادة "حازم".. يتحرك ذلك الجيش الصغير حسب الميعاد إلى نقطة الالتقاء المنشودة.. دقائق ويظهر الفريقان التاليان.. يفوق كل منهما عددًا ضعفي جيش "حازم".

يصطفّون ويتمركزون تحت قيادة قائدهم المؤقت "موردخاي

جـور".. ويجلسـون متأهبـين في سـواد الليـل، في انتظـار قائدهـم الفعـلي "شـارون" قائـد الفرقـة ٢٠٢ مظـلات.. الـذي انطلـق قبـل تجمّعهـم ليكمـل أولى مهامـه الخطـرة في ذلـك اليـوم.. التاسـع والعـشرون مـن أكتوبـر ١٩٥٦.. العـدوان الثـلاثي.. كانـت مهمتـه الحاليـة هـي تجميـع فرقتـه المظليّـة بالعديـد مـن فـرق المشـاة والمركبـات والمدرعـات التـي انتـشرت بالفعـل في سـيناء، ليصبحـوا جميعًـا جيشًـا بريًّـا كامـلاً.

تمـرّ الدقائـق عليهـم كالدهـور.. لا ينطـق أيّهـم بكلمـة.. يعـوي ذئـب مـن مـكان مـا، ثـم صمـت مطبـق، عـدا مـن صـوت الريـاح.. ينتظـرون، وتمـر سـاعتين.. إلى أن يشـقّ هـذا الصمـت المترقّـب صرير وجلبـة ماكينـات ومدرعـات تقـترب.. يتنفـس الجنـود مـن جديـد، إلا "حـازم" المحـاصر بمئـات منهـم، والآن تنضـم إليهـم معـدات حربيـة، فينقبـض قلبـه كـما لم ينقبـض مـن قبـل.

يعلـو صـوت الحديـد المتحـرك أكـثر وأكـثر، إلى أن يظهـروا جميعًـا فعـلاً بقيـادة "شـارون" الـذي يبـث الثقـة والحـماس في قلـوب جنـوده، عـدا صديقنـا المحـاصر مسـلوب الإرادة.. يتبادلـون التهـاني جميعًـا عـلى نجـاح الجـزء الأول الصعـب مـن الخطـة.. يشـعر "شـارون" وجنـوده بالنشـوة العارمـة والحـماس الجـارف، كـون التحـام قواتهـم معًـا أعطاهـم الصلابـة الكافيـة لترسـيخ أقدامهـم في تلـك المعركـة عـلى أرض سـيناء التـي لم يطؤوهـا مـن قبـل.

وبعد إعادة التمركز والتوزيع، يسأل "موردخاي" "شارون":

- متى نبدأ؟

فتجنح الوحشية الجينية في دماء "شارون" إلى ما هو أوسع مدًّا من هدف قياداته من تلك الحرب. كانت مهام "شارون" بعد ذلك الالتحام تتلخص في التقدم والاشتباك مع الجيش المصري حين ملاقاته، إلى أن يحتدم القتال، فتجبِر إنجلترا وفرنسا العالم وتجرّه إلى قرار وقف إطلاق النار بين الجيشين مع قرار يجبرهما على تراجع كل منهما ١٠ كيلومترات.. شرق قناة السويس لإسرائيل وغربها لمصر، فتدخل حينها كالضيف السمِج قوات إنجلترا وفرنسا المرابطة في شمال بورسعيد لتأمين فصل القوات وتنفيذ قرارات مجلس الأمن، وتعود لهما سيادة قناة السويس بعد انتزاعها من الإنجليز بقرار التأميم الشهير. يبتسم "شارون" بجذل وحشي، ويردّ ويكاد الزبد يسيل من شدقيه:

- لدينا مهمة فرعية أولاً.. سنبدأ بها.

لم يتقدم "شارون" -عن عمد- وانطلق يرسل تقارير متتالية لقياداته عن تخوفه من وجود قوات مصرية كامنة داخل المدينة القريبة، قد تخرج عليه من ممر متلا لتهاجمه من الخلف؛ يطلب الإذن باقتحام المدينة السهلة لتأمين قواته من ذلك الاحتمال. تُقابل جميع تقاريره بالرفض القاطع لابتعادها عن جوهر الخطة الأساسية، بالإضافة إلى معرفتهم بطبيعة ذلك الرجل المتعطشة لدماء المدنيين، فلم تحظ تحذيراته بالمصداقية

المنشودة.

ولكن من الصعب أن تقنع ذئبًا يشم رائحة لحم سهل أن يغادره ويمضي. يصمّ "شارون" أذنيه عن أوامر قياداته، ويستدعي جزءًا ليس بقليل من الجنود، منهم "حازم" الموشك على الموت كمدًا واختناقًا، وبعض المركبات، لتكون تلك فرقة استطلاعية مهمتها استكشاف الوضع داخل ممر متلا.

تنفصل تلك الفرقة وتتجه للممر.. يدخلونه ببطء، مترًا مترًا.. و"حازم" في حالة هياج داخلي مكتوم، ويتمنى أن يُفرِغ جميع طلقات سلاحه في كل مَن حوله.. لكنه كان كالمتفرج، بلا قدرة، إلى أن صاروا جميعًا بداخل الممر بالفعل وهم يتقدمون بحذر ويتلفّتون.

لتنهمر عليهم النيران من القوات المصرية بدون إنذارات ولا كلمات.. وبين المفاجأة ورد الفعل والرعب.. يتخذون قرارًا فوريًا بالانسحاب، فينطلقون في تكثيف إطلاق النيران عشوائيًا وهم يتراجعون لتأمين غطاء يكفل الانسحاب.. لكن لم يكن المصريون بذلك الحنان، ويتم محو معظم تلك الفرقة من الوجود ولم يتبق منها إلا أشلاء وحطام مركبات.

يجنّ جنون "شارون" ويصّم أذنيه عن الأوامر الصارخة التي انهمرت عليه بالانسحاب والاستمرار في الخطة الرئيسية، فيقود تعزيزات من فرقة أكبر، ويظل من ضمنها "حازم"، ولكن في اتجاه آخر كسبيل للمناورة، من ناحية الثمد ليلتف من خارج

ممر متلا.

يقتحم الثمد فجرًا ويمطرها بالمدفعية الثقيلة ويستولي على نقطة شرطة سودانية تقبع بها، تابعة لحرس الحدود المصري.

تمتزج أحاسيس "شارون" في تلك اللحظات بين الغضب على فقدان ما فقد في متلا، ونشوة الانتصار الصغير في الثمد. ورائحة المدنيين في نخل تُسيل لعابه.. فيقرر الاستمرار.

وبينما هو وفرقته في الطريق لنخل، تظهر في السماء طائرة مصرية ميج ١٥، إلى الآن لا يعلم أحد يقينًا طبيعة المهمة المكلَّفة بها، ولا من أين أتت ولا إلى أين وجهتها، لكن ذلك الطيار المصري يأبى أن يمرّ على أبناء عمومته مرور الكرام، فيلقي عليهم تحية مصرية خالصة ويُمطرهم بوابل سخيّ من الرصاص والقذائف، أفقدهم الكثير، قبل أن يمضي إلى مهمته الأساسية.

هنا يفقد "شارون" صوابه ويصير مبتغاه الشخصي المرتَجَل هدفًا لن يحيد عنه مهما تكلف الأمر.

في الثلاثين من أغسطس يصل ما تبقى من تعزيزات "شارون" تحت قيادته إلى جبل حيتان الإستراتيجي. وبخبرة عسكرية يدرك سريعًا أن من يستحوذ على ذلك الجبل ويعتليه، فالمعركة بالتأكيد من نصيبه. في تلك الأثناء كان "موشى ديان" يكاد يُسمع صراخه في سيناء من فرط الغضب، بينما "شارون" ورجاله كالزومبي يسيرون في طريقهم.

ينمو إلى عِلم "شارون" في تلك الأثناء أن الفرق الأولى والثانية والرابعة مدرعات مصرية تقدمت في مقابلتهم، فيستدعي فورًا باقي قواته المدرعة المتمركزة بالقرب من تلك المعارك، ويكلّف "موردخاي جور" بقيادة فرقتي مشاة وبطارية صواريخ وبعض الدبابات لاحتلال الجبل، لتوفير الغطاء لـ"شارون" وجنوده بالأسفل.

وفي ظهيرة الواحد والثلاثين من أغسطس يصل "موردخاي" إلى الموقع المنشود، ليفاجأ بالقوات المصرية تحتل الأماكن الأكثر إستراتيجية، وتتبادل جميع الأطراف النيران الكثيفة والمدفعية الثقيلة، تتقهقر على أثرها القوات الإسرائيلية كالفئران، ويتم الانسحاب الكامل من تلك المعارك والعودة إلى المربع صفر أمام ممر متلا، بعد فقدان يومين كاملين والكثير من المعدات والأفراد.

لاحقًا -بعد العدوان الثلاثي- ستتم إحالة "شارون" للتحقيق وتوجيه اللوم له على كل ما حدث، وسيتم حرمانه من العديد من الترقيات بعدها جزاء على كل ما حدث في هذين اليومين.

تعود الفلول المهزومة إلى موقعها الأصلي.. وينهمك "شارون" و"موردخاي" في تقييم الخسائر وإعادة ترتيب القوات، قبل أن يتجهون غربًا لبدء المخطط الثلاثي.. ويبدو على "شارون" اجتهاده في ألا يفقد أعصابه.. "حازم" يقف في الصفوف الأولى، ينظر إلى الأرض كل حين ويكاد أن يضربها بقدميه إن يستطيع،

لتتزلـزل كالعـادة وتنشـق وتبتلعـه وتخلصـه مـن هـذا الحـدث.. وهـو مـا لم يحـدث.

وفي تلـك اللحظـات ينجـح "قائـظ" في فـك معضلتـه السـوداء.. يفعلهـا.. ويهـب القـدرة لـ"حـازم"!

الآن.. في الصفـوف الأولى.. وسـط هـذا الجيـش.. في ذلـك اليـوم التاريخـي.. يمتلـك "حـازم" الرغبـة.. والقـدرة.. والإرادة.. والاختيـار.. والفعـل.

-١٣-

دخلنا راس شيطان.. وهنا تعجز الكلمات عن الوصف!

على افتراض -ساذج ومنغلق- أن مقاييس الجمال عند المرأة هي شعر ذهبي وبشرة برونزية وعين زرقاء و165 سم و65 كجم، وهي مقاييس ليست حصرية في الجمال عمومًا.. لو افترضنا هذا، فوصف أي امرأة بتلك المواصفات لا يعني بالضرورة إطلاقًا أنها جميلة.. قد تكون عادية، أو قبيحة ولها تلك المواصفات.. وبالتبعية فذوات المواصفات الأخرى قد يكُنّ ملكات جمال.

لذلك، فأي وصف لروعة هذا المكان لن تجدي شيئًا.. يجب أن تأكل الشيكولاتة لتعرف ما نوعية وشكل المتعة التي يقولها آكلو الشيكولاتة عنها. أي وصف لراس شيطان غرضه الوحيد سيكون لرسم الصورة، وليس وصف المتعة.

شعرنا أن المكان هو صورة جديدة أو تجسيد ثلاثي الأبعاد لما لاقيناه داخل الجبال التي مررنا بها.. شيء، أو أشياء ما بداخلك عادت إلى نقطة الأصل لتستقر وتهدأ.. تشعر فعليًا أن عالمك الفعلي وجميع الاجتماعات التي تحضرها والسيارات التي

تركبها على أسفلت أسود هي جميعًا محض هراء سخيف.. بينما الحقيقة النظيفة تقبع هنا!

عمومًا.. المكان بدائي لأقصى درجة تتصورها.. كان هذا المبنى الطيني الذي تركنا سيارتنا خلفه هو المطبخ.. أمامه كاونتر من الطين يقوم بدور الاستقبال والحجوزات وتلقي طلبات الطعام.. من ورائه فتحة نصف دائرية في الجدار معلق بأسفلها قطعة خشبية توضع عليها الأطباق المجهزة.. لوح خشبي مغبر معلق على الجدار مكتوب عليه قائمة الطعام وأسعار كل صنف.. ولاحظت شيئًا غريبًا، خلف ذلك الكاونتر على الأرض يوجد مشترك كهرباء يخرج منه خمسة شواحن موبايلات متصل بكل منها موبايل.. ليس هذا الغريب، بل أن بجوارهم أكثر من عشرين موبايلاً آخر موضوعين أرضًا في صفوف متجاورة.

كان الشاب الجالس على الكاونتر يعدّ نقودًا من عملات مختلفة ويصنفها، كان منهمكًا في ذلك، وفي ترتيب باسبورات في داخل درج بدائي في ذلك الكاونتر الطيني.. بادرت بالكلام:

- سلام عليكم.

نظر إليّ مبتسمًا ورد بحفاوة:

- وعليكم السلام.

ثم عاد لما يفعله دون كلمات إضافية. أعلينا نحن أن ندير الحوار أم ماذا؟ نظرت إلى "عمر" و"أكرم" فوجدتهما في حالة

أشبه بالتخدير، فاستكملت:

- عايزين نبات عندكم كام ليلة كده يا صاحبي.

نظر إليّ مبتسما من جديد وطلب مني الانتظار قرابة نصف ساعة كونه مشغولاً جدًا، ونصحنا أن نأخذ جولة في المكان حتى ذلك الحين.. شكرناه واسترقنا النظر داخل المطبخ، لنجد بضع شباب مصريين في انهماك كامل، وإن كانت ثمّة روح طيبة بادية في الجو العام.. ارتياح كامل مغلّف بمرح خفيف وحيوية كبيرة ها هنا. قبل أن نستدير لنتجول في المكان أكدت على الشاب أننا ثلاثة وأنني أعتبر أننا حجزنا بالفعل، نظر إليّ مبتسمًا (عرفت لاحقًا أنه لا يكف عن الابتسام الحقيقي مهما حدث)، ولم يردّ بأي كلمة، وعاد للانهماك في كتابة أشياء في جدول في كراسة أمامه.

استدرنا وتقدمنا خطوات. ولا أدري كيف أستطيع وصف تلك الجنة.. المكان بدائي جدًا.. رأيت الغرف أو الشاليهات المقرر أن نستأجر أحدها للمبيت، هي في الحقيقة عشش من الخوص بنيت بأشكال في منتهى البساطة والجمال.. يطلقون عليها "خِوَش" والمفرد "خوشة".. تتناثر تلك الخوش على الشاطئ دون أدنى شبهة في أن من وزّعهم هكذا قصد أي نظام، ودون -في الوقت نفسه- أي اتهام بتوزيعها بعشوائية.. هل رأيت أسراب الطيور في السماء؟ نفس الفكرة هنا. الجبل نفسه يقبع عليه عدد آخر من تلك الخوش، ما أعطى انطباعًا عامًا بأن سكان

هـذه المنطقـة هـم قبيلـة في عـصر حجـري قديـم.. وأمـام المطبـخ الـذي تركنـاه للتـو كانـت تلـك المسـاحة المخصصـة للأنشـطة العامـة التـي يمكـن تلخيصهـا -أو ذكـر أهمهـا- في الأكل والـشرب والمخـدرات -جهـارًا.. ليـلاً أو نهـارًا- وتبـادل الأحاديـث القصـيرة ولعـب الموسـيقى والتأمـل في الكـون مـن حولـك وفي المكنـون بداخلـك.. كانـت تتكـون تلـك المساحة مـن مظلات عـلى جانبيهـا، سـيقان تلـك المظـلات جـذوع نخـل وأسـقفها جريـد، وأرضيتهـا سـجاجيد بدويـة تلـك المسـماة "كليـم".. تـم تقسـيم تلـك المظلات إلى مجموعـات.. كل مجموعـة بهـا أرائـك ووسـائد للاتـكاء وطبليـة تتوسـطه.. سـحر البسـاطة.

يوجـد في مـكان ليـس بقريـب مبنـى بـدائي عرفنـا أنـه حمامـات المـكان مجتمعـة، حيـث لا توجـد في الخـوش حمامـات ولا كهربـاء.. وكان هـذا تفسـير الموبايـلات المتراصـة عنـد مصـدر الكهربـاء الوحيـد في المـكان.. حمـدت اللـه أن تلـك الحمامـات تبـدو بدائيـة لكنهـا مـن الداخـل إفرنجيـة وليسـت بلـدي، بالإضافـة إلى نظافتهـا الشـديدة.. كان هـذا البنـد وحـده كفيـلاً بتدمـير كل المميـزات السـابقة.

إن كنـت تعتقـد أن أي بحـر مثلـه مثـل غـيره.. فدعنـي أؤكـد لـك أن هـذا البحـر ليـس كأي بحـر.. بالضبـط في منتصـف الشـاطئ امتـدت الأرض فيـما يشـبه اللسـان بداخـل البحـر لمسـافة معقولـة، لتقسـمه إلى قسـمين، وتنتهـي بكتلـة صخريـة ضخمـة يمكـن أن تعتبرهـا تبـة صغـيرة صارخـة النتـوءات والتضاريـس.. تبـدو وكأنهـا

عـلى هـذا الشـكل صامـدة دون تغيـير منـذ خلْـق الأرض.. والبحـر مـن يمينهـا ومـن يسـارها لـه لونـان، أخـضر فـيروزي مـن أولـه لامتـداد متوسـط المـدى، يتحـول بعدهـا اللـون فجـأة إلى الأزرق القاتـم الصريـح.

كل هـذا جميـل.. حتـى رواد المـكان المسـتلقين عـلى الشـاطئ أو تحـت المظـلات بعضهـم يلعـب موسـيقى وبعضهـم صامـت وبعضهـم يلعـب طاولـة، لم يبـدُ عـلى أي منهـم أي انتبـاه أو التفـات نحونـا.. الموسـيقى المنبعثـة في الجـو سـاحرة.. شرقيـة ورتيبـة، ولعـل رتابتهـا هـي سر سـحرها، حيـث ذلـك الشـعور بأنـك تمتلـك الوقـت كلـه لا يمتلـكك هـو.. تتحـول سـاعة اليـد في مثـل هـذه الأجـواء إلى مجـرد دائـرة بداخلهـا خطـان أحدهـما أقـصر مـن الآخـر، لا أكـثر ولا أقـل.. الرائـع أيضًـا في الموسـيقى المحيطـة بالمـكان أنهـا بـآلات ليسـت تكنولوجيـة ولا حديثـة إطلاقًـا، كالنـاي والطبلـة والعـود.. وبعـض النقـر بملعقـة معدنيـة عـلى كـوب زجاجـي مـن وقـت لآخـر لا يضـير أحـدًا.. الموسـيقى الحيـة التـي تُلعـب وتُخلـق أمامـك لا تقـارن بـأي حـال بتلـك المجهـزة المسـجلة، حتـى إن أخطـأ العـزف أو نشـز في بعـض الأحيـان.

اكتفينـا بالتجـول بأعيننـا في المـكان، وكنـا في غايـة الإنهـاك فعـلاً.. اتجهنـا لنحتـل مـكانًا تحـت إحـدى المظـلات القليلـة الخاويـة، ولبسـنا الـزي الرسـمي للمـكان، أي خلعنا التيشـيرتات وصرنـا عاريي الجـذع حافيـي الأقـدام -ظللنـا هكـذا طـوال أيـام الإقامة بالمناسـبة- واسـتلقينا أرضًـا بعـد الرحلـة المرهقـة، فشـقّت أذني جملـة أتـت

مـن أحـد الجالسـين تحـت المظلـة المجـاورة:

- آني غئيف شاحور.

"أبناء العم؟!".

-١٤-

يقف "حازم" على بُعد أمتار من "شارون".. وفي تلك اللحظات ينجح أخيرًا "قائظ" ويرمي لعنته على روح "حازم" ويتقافز وهو يصرخ فرحًا وإثارة.. جنود "قائظ" لا يعلمون شيئًا لكنهم ينخرطون بالمِثل في صراخ محموم بأصوات كأصوات القرود في الغابات، تلك هي طريقتهم في الاحتفال.

و"الأنور" يراقب، وقد بدأ قلقه يتضخم، وهو يلتفت هنا وهناك منتظرًا ظهور "واعظ" ليفعل أي شيء.

"حازم" الذي كان مكتفيًا بدور المتفرج عديم التأثير، يشعر بها.. يشعر بالدم المادي يجري في شرايينه لأول مرة في ذلك الكابوس.. يشعر بجوع وإثارة.. يشعر بوزنه وثِقَل ملابسه.. يشعر ببرودة الجو على وجهه.. يسمع "شارون" والمرافقين بنقاء أوضح، كأن أحدهم نزع سدادة الأذن من عليه.. لا يصدِّق.. يرفع كفيه أمام وجهه، فيطيعانه.. يحرك أصابعه فتستجيب.. يدير رأسه يمينًا ويسارًا، فيرى يمينه ويساره.. يشعر بأنفاسه تتلاحق وبقلبه يلاكم قفصه الصدري.. يبعد كفيه من أمام وجهه ليرى "شارون" منهمكًا مع "موردخاي" في مناقشة

وقـراءة خريطـة.

لا يعلـم كـم مـن الوقـت بالضبـط أمامـه، لكـن لا مجـال للتفكـير والحسـابات.. يـودّ كثـيرًا لـو كان معـه قنابـل، لكـن مـا معـه كان سـلاحًا آليًـا، لـن يغامـر باسـتخدامه بجهـل فـلا يعمـل وينكشـف ويُصَفّـى، وخنجـر أصيـل يقبـع في حزامـه.

يتلفـت مـن جديـد بحـذر، فـيرى الجنـود مـن حولـه في حالـة تأهـب، لكـن لا أعـين عليـه.. يمسـك مقبـض خنجـره البـارد، ويخرجه ببـطء شـديد، ثـم يخفيه بمهـارة داخـل كُمّـه دون أن يـترك المقبض.. ينظـر إلى "شـارون" ويحسـب المسـافة ويرتّـب الهجمـة.

بمجـرد أن يسـتدير "شـارون"، سـيأخذ "حـازم" وثبتـين في اتجاهـه والثالثـة سـيلتصق فيهـا بظهـره قبـل أن يسـتدير معـه بجسـدهما ليواجـه جسـد "شـارون" أي رصاصـات قـد تصـدر مـن هـؤلاء الجنـود، ثـم يضـع الخنجـر في مكانـه المنتظـر، داخـل رقبـة "شـارون"، عقابًـا عـلى كل مـا فعلـه.. أو بالأحـرى، مـا سـيفعله.. ولا يهـمّ أي شيء سـيحدث لـ"حـازم" بعدهـا.. التضحيـة رابحـة تمامًـا.

يبتعـد "موردخـاي" مسرعًـا ليتحقـق مـن أشـياء في مؤخـرة الجيـش.. و"شـارون" منهمـك في ترتيـب خرائطـه وهـو يمـشي بهدوء مقتربًـا، قبـل أن يتوقـف ويرفـع عينيـه فجـأة عـن الخرائـط، لينظـر مبـاشرة في عينـيّ "حـازم" بثبـات، ويحـاول "حـازم" أن يتحـاشى التقـاء نظراتهـما.. يشـعر "حـازم" بشـعر رأسـه يتحـرك وبجسـده يتجمـد، لديـه ضربـة واحـدة فقـط وسـينتهي بعدهـا تمامًـا.. يتحرك

"شـارون" نفسـه مـن جديـد ببـطء نحـو "حـازم" وثمّـة تشـكك كبير يبـدو في عينيـه.. يقـف الآن أمـام "حـازم" تمامًـا، ويمـدّ يـده عـلى عنـق "حـازم" ليخـرج دلّايـة سلسـلة بيانـات الجنـود مـن قميصـه، ويقـرأ مـا فيهـا.

"الآن.. هيا".

ينطـق "حـازم" في سرّه "أشـهد ألا إلـه إلا اللـه" ويحـرر الخنجـر مـن كـمّ قميصـه.

"و أشــهد أن محمــدًا.." ويُحكــم قبضتــه عــلى الخنجــر بعــد اســتعداله.

ويرفـع يـده لأقـصى مـدى.. ويهـوي بخنجـره عـلى جانـب رقبـة "شـارون".. ويـدوّي صوتـه في السـماء "رسـول اللـه".

-١٥-

آني غئيف شاحور!

تستطيع تمييز اللغة العبرية من وسط ألف لغة بمجرد سماعك لكلمات قليلة منها. نزلت على آذاننا تلك الجملة العبرية كالصاروخ.. أجفلنا جميعًا ونظرنا إلى المتحدث، الذي لمح رد فعلنا ولم يتجاوب معه مطلقًا، بل استمر هو ورفاقه في حديثهم بتلك اللغة المقبضة حقًا للقلب. تلفتنا لنعيد النظر والسمع في أرجاء المكان، لنجد أن هذا الشاب ما هو إلا قطرة، انهمر غيث الإسرائيليين من ورائها بعد أن اكتشفنا حين أمعنّا النظر أن كل الموجودين في المكان -باستثناء المصريين العاملين- إسرائيليين.

الشباب والبنات والدندنة والحوارات والجو العام، عبري تمامًا.. تشعر أنك تستمع للغة عربية معكوسة من أناس يشبهونك شكلاً إلى حد ما.. لكن ما في قلبك وقلبهم معروف.. معروف ومكشوف.

دخلنا أنا و"أكرم" و"عمر" في نقاش ساخن حول الخطوة المقبلة.. "أكرم" أخذته الجلالة وارتدى ملابسه -التيشيرت

للدقـة- وأخـذ يصيـح فينـا بغضـب وتوتـر:

- يلا من هنا.. يلا!

"عمـر" أصابـه الوجـوم، وإن كان أكـثر عقلانيـة، وشـدد عـلى اسـتحالة القيـام بـأي تحـرك أو إلغـاء للرحلـة بسـبب حالتنـا الجسـدية المنهكـة بعـد تلـك الرحلـة المكوكيـة، خصوصًـا أن المـكان نفسـه راق لـه -ولنـا بصراحـة- كثـيرًا، وتدريجيًـا تحـدّث بنـوع مـن الأريحيـة عـن عـدم وجـود أي مشـكلة لديـه في مجـاورة هـؤلاء.

لا أنكـر الانقبـاض الـذي أصابنـي، لكنـي دافعـت عـن فكـرة أن "الأرض دي أرضي" و"هـمّ الـلي يغـوروا مـش إحنـا" وكلام حنجـوري مـن هـذا القبيـل.. واتفقنـا بصعوبـة عـلى الاسـتمرار، وتجنُّـب أي احتـكاكات بهـم.. لا لكثرتهـم، ولكـن لهمجيـة الأمـر وعـدم وجـود أي جـدوى محتملـة مـن أي مشـادة أو معركـة.. لنكـن عقلانيـين "وخـلاص".

ذهبـت للكاونـتر -بعـد أن طـار النـوم مـن جفوننـا- لأطلـب طعامًـا لنـا، فتصـادف وجـود أحـد أبنـاء العـم هـؤلاء يتحـدث مـع موظـف الاسـتقبال الـذي لا يكـف عـن الابتسـام أبـدًا، كانـا يتحدثـان العبريـة بطلاقـة ومـرح، ثـم جـاءت لحظـة دفـع النقـود، فانتبهـت بشـدة ولمحـت العملـة التـي يتداولونهـا معًـا. هنـاك فيـما بعـد مـرسى مطـروح يمكنـك بسـهولة أن تـرى الدينـار الليبـي وقـد تتـداول بـه أيضًـا بشـكل محـدود.. لم أتخيّـل أن أرى بعينـي فكـرة مشـابهة قـد تحـدث هـا هنـا.

فرأيت الجنيه المصري.. ظهر متألقاً على غير عادته أمام عينيّ.

ضعيف القيمة عظيم الدلالة.. برّد ناري إلى حد كبير، ونقلت الخبر لصديقيّ حين عدت إليهما بصينية الطعام.. العملة المتداولة في أي مكان في العالم هي علامة هوية أكيدة.. يكفيني، حاليًا ونسبيًا، نوعًا ما أن هؤلاء الزوار قاموا بتغيير ما معهم من نقود إلى العملة المصرية، ليشتروا بضائع مصرية على أرض مصرية.. عظيم، إلى حد ما.

وضعت صينية الطعام على الطبلية، وسمَّينا بسم الله، إلا "أكرم"، قام بتلاوة التسمية بصوت عالٍ جدًا لدرجة أنني أعتقد أن أهله في القاهرة سمعوها بوضوح. تصرف طفولي بحت، لم يأتِ لنا إلا بنظرات زجاجية من الجميع دونما أي رد فعل، قبل أن يعودوا هم ببساطة لما هم فيه.. فبدوا كالعقلاء المتزنين ونحن كالأطفال المتعصبين. جعلتني فعلته الساذجة هذه "في نص هدومي".. في نص "بنتاكوري" أقصد.

انقضضنا على الطعام المكوّن من فول بزيت الزيتون وطعمية وبيض أومليت وبطاطس محمرة وباذنجان مقلي وسلطة طحينة، وخبز تم الانتهاء من خَبْزه من دقائق قليلة.. لقمة وراء لقمة.. والموسيقى الحية تنبعث بهدوء في آذاننا.. مع صوت موجة بحر وراء موجة تصطدم بهدوء بالشاطئ.. وبعد انتهائنا من مائدة الطعام العظيمة، تلقائيًا أتانا أحد العاملين

حاملاً براد شاي بالمرمرية، أعطاه بأكمله لنا -وهو العرف- مع ثلاث أكواب وزجاجة مياه باردة.

أصبحنا في حالة رضا كامل عن النفس والزمان والمكان.

فردت جسمي.. وفي ظرف ثانيتين استسلمت لتلك الهجمة من المتعة المكثّفة بالنوم العميق.

-١٦-

لا يتذكر "حازم" تفاصيل ما حدث بوضوح.. آخر ما يذكره هو اندفاع يده الممسكة بخنجر نحو رقبة "شارون" الذي يتفحص بيانات "حازم" من سلسلته، بينما الجزء الأخير من شهادة "حازم" خفت صوتها سريعًا بعد أن ملأت السماء، قبل أن يختفي كل هذا ليجد "حازم" نفسه دون إرادة من جديد، في داخل نفسه ذاتها، في يوم ما من المستقبل القريب.. وقد صار رجلاً يافعًا ويبدو أنه ذو أهمية كبيرة جدًا.

*****

إنه العام ٢٠٣٤.. تحديدًا في شهر مارس.

المكان.. مدينة المؤتمرات الدولية، في الكيلو ٦٠ طريق سيوة – الوادي الجديد.

الحدث.. المؤتمر السنوي للدول السبعة الكبرى:

الولايات المتحدة – الاتحاد السوفيتي – ألمانيا – مصر – الصين – اليابان – بريطانيا.

كان "حازم عبد الحق" المستشار الاقتصادي للرئيس المصري يلقي الكلمة الختامية في المؤتمر الصحفي الذي عُقد بعد جولة اجتماعات تخص الشأن الاقتصادي للدول الكبرى السبعة.

- ... وأهم ما يود العالم سماعه بهذا الشأن.. أن الدول السبع قد وافقت بالإجماع على المشروع الذي طرحه جانبنا المصري، والذي سيكون نقطة تحول جِذرية وشاملة في تاريخ الإنسانية جمعاء.

ترتسم ابتسامة رضا على وجه نظيره الألماني، ويهزّ الأمريكي رأسه في حماس، بينما تزداد ملامح الياباني جدية على جديتها.

- لقد حققت الدول السبع الكبرى جميعًا فائض ميزانية تاريخي وغير مسبوق في خمس سنوات متتالية سابقة، ولم يعد لدى هذه الدول ما تضيفه لشعوبها وبلادها بعد الوصول إلى اكتفاء ورخاء غطى ١٠٠٪ من شعوبهم، مدعومًا ومغطًّى بالنظام الاقتصادي الشمولي الرأسمالي "سينا" الذي أسس قواعده خبيرنا المصري "د/ زين الدين فرحان" وسِرنا عليه بحذافيره منذ عشر سنوات كما تعلمون.

هنا يترك الصحفيون والمراسلون ما بأيديهم على كراسيهم ويقفوا جميعًا ملتفتين بأجسادهم صوب "د/ زين الدين" الذي يقف بدوره ليرد تحيتهم، مع انحناءة خفيفة وابتسامة عذبة،

ويستمر تصفيق الجميع بما فيهم المستشارين الاقتصاديين السبع لدقيقتين متواصلتين.

وبعد أن عاد الجميع لما كانوا عليه، يستطرد "حازم":

- كما يعلم الجميع فإن هذا النظام "سينا" كان كالمقامرة.. فهو لا يمكن تطبيقه إلا على نظام اقتصادي مستقر وقوي، خصوصًا أنه يُحدث تأرجحًا مشوبًا بخطر الانهيار الكامل، إذا لم يتم الانتباه والتعامل السريع مع المخاطر الستة التي ذكرها الدكتور في مشروعه العملاق، وإذا مرّت ثلاث سنوات الترسيخية -حسب تسمية الدكتور- فستكون شجرة الرخاء ضربت جذورها في أعمق أرض، ويصبح فرعها في السماء، وتؤتي ثمارًا مضاعفة مضاعفات كثيرة.

يشرب بعدها "حازم" رشفتي ماء ثم يجفف شفتيه بمنديل، ويلتفت إلى نظيره الأمريكي مبتسمًا، ويستطرد:

- كان تنفيذ الدول السبع مجتمعة لذلك النظام مشوبًا بالحذر كما تعلمون، وقمنا بعمل خطط بديلة حال تعثّر أي دولة، لإنقاذها قبل أن تدخل فيما سماه الدكتور "زين الدين" مرحلة "الترنّح".. شريطة ألا تتعثر ثلاث دول معًا في نفس الوقت.. كان هذا هو الخطر الأكبر.. لذلك عندما دخلت الولايات المتحدة وبريطانيا معًا في مرحلة "الدوّامة" السابقة للمرحلة الأخيرة "الترنّح" قبل حدوث الانهيار الكامل، تذكرون حضراتكم ما حدث، وكيف تولّت مصر واليابان أمريكا، وتولّى

الاتحاد السوفيتي والصين وألمانيا بريطانيا.. لن أستطرد أكثر من هذا، فأنتم تعلمون، لكن وجَب التذكير بتلك المرحلة الخطيرة جدًا على العالم بأسره، لندرك كمّ الإنجاز المتحقق، والتمسك به، والمضيّ قُدمًا فيما هو أكبر وأعَمّ لصالح الإنسانية جمعاء.

تصفيق حاد من الحضور، وابتسامة مفتعلة على وجه الأمريكي، وبرود إنجليزي على وجه البريطاني.

يستمرّ "حازم":

- قادنا نظام "سينا" إلى تحقيق الاكتفاء الكامل، كما قلت في بداية حديثي، وحان ميعاد إطعام كل جائع يتنفس على وجه هذه الأرض.. حان ميعاد إيجاد مأوى مناسب للمشردين جميعًا.. لن تكون هناك أمراض.. ولا سرقات.. ولا حوادث قتل.. ولا اغتصاب.. نحن في الطريق لتغيير اسم ذلك الكوكب.. من الأرض.. إلى يوتوبيا.

لا يصفّق الحضور فحسب، بل يصفق العالَم بأسره الذي كان متابعًا لذلك المؤتمر الذي أُعلن أنه سيدلي بتفاصيل المرحلة القادمة وشكل الحياة الجديد، والذي سيمسّ الحياة الشخصية المباشرة لكل البشر، دون استثناء.

يترك "حازم" المايك ويستلمه ممثل اليابان، ليشرح خطط وآليات المرحلة القادمة، إلى أن ينتهي المؤتمر.

للمرة الثانية، يشعر "حازم" أنه مسلوب الإرادة، وإن كان

راضيًا سعيدًا تلك المرة.. لديه شعور أن له دخلاً بشكل مباشر في حدوث كلّ هذا.. هو داخل نفسه يراقب ما تقوله وتفعله نفسه (أو جسده) الخارجية، دون أدنى قدرة على التدخل والتغيير.. مجرد متفرج من الداخل.. ماذا لو ارتدت إليه الإرادة كما حدث أمام "شارون"، ماذا عساه أن يفعل تلك المرة؟ ينتحر مثلاً؟ ولماذا يفعل هذا؟ يبدو أن كل شيء على ما يرام.. بل أروع مما ينبغي.

في السيارة التي تقلّه إلى وزارة المالية، يمدّ السائق يده للخلف مناولاً "حازم" جهازًا لوحيًا صغيرًا، متوسط السُمك، و"حازم" لا يعرف ما هذا، لكن ليشاهد نفسه ماذا سيفعل.

يمسك "حازم عبد الحق" بذلك الجهاز الصغير، ويفرده مرة وراء أخرى ليتضح أنه تابلت ضخم في حجم صفحة جريدة، ويحتوي على إمكانية الطيّ. وبلمستين تضيء الشاشة، ويأخذ "حازم" يسحب عليها جريدة تلو أخرى يقلّب في أخبارها الرئيسية، لتقع عيناه على بعض الأخبار التي كان بعض منها يقول:

"مصر تتعادل مع البرتغال بهدف لكل منهما، في المباراة التي أقيمت في لشبونة ضمن استعدادات مصر لرحلة كأس العالم التي ستقام بعد ثلاثة أشهر في المغرب، والتي يحمل لقبها من النسخة الماضية المنتخب المصري للمرة الثانية في تاريخه، والذي سيسعى لخوض حرب ضروس في يونيو للفوز بالكأس

للمـرة الثالثـة والاحتفـاظ بهـا مـدى الحيـاة".

"عـدد السـائحين في مـصر يتضاعـف عـن العـام السـابق ويبلـغ أقـصى معـدل في تاريخهـا بثلاثـين مليـون سـائح سـنويًا".

"فريـق العلـماء المـصري يصـل بأبحاثـه إلى نسـبة نجـاح ٩٥٪ لعـلاج السرطـان، العاكفـين عليـه منـذ عـشر سـنوات، وينـشرون الأبحـاث والتركيبـة العلاجيـة عـلى الإنترنـت لتصنيـع العـلاج عالميًـا بكثافـة".

كان "حـازم" -مـن الداخـل- ممتـزج المشـاعر بشـدة.. بـين سـعادة غامـرة، وفخـر يملـؤه ويفيـض، وذهـول كامـل مـما رأى وطنـه عليه.. يفكـر أن يتحـدث مـع السـائق، لكنـه كان بعـد كالمتفـرج فحسـب.. لا إرادة لديـه.

يطـوى "حـازم" -المنتمـي إلى هـذا الزمـن- التابلـت عـدة مـرات ليصـير في حجـم الكـف، قبـل أن يضعـه في جيبـه.

تسـير السـيارة كثـيرًا وسـط شـوارع منظمـة هادئـة، عـلى جانبيهـا عمـران راقـي البنايـات ليـس بكثيفهـا، وكانـت الغلَبـة للمسـطحات الخـضراء المنسـقة بعنايـة فائقـة.

لـو كان لـ"حـازم" أن يبـكي لبـكى فرحًـا، شـاعرًا أنـه كان السـبب بشـكل مـا في كل هـذا الـذي يفـوق أقـصى أحلامـه لوطنـه بمراحـل كثـيرة. يهتـزّ التابلـت في جيبـه، فيخرجـه ويفـرده مـن جديـد "حازم عبـد الحـق"، ليعلـن الهاتف عـن اتصـال مـن Salma Sweetheart.

وهنا ترتدّ الأحاسيس لـ"حازم".. يصبح شحمًا ولحمًا من جديد.. يشعر بالحرارة وملمس الأشياء.. يمتلك زمام الأمور من جديد، بمجرد أن يضع سماعة لا سلكية في أذنه، ويفتح الخط.. يخمن من الاسم أنها زوجته، فيقول بحذر:

- أيوه يا حبيبتي.

- باااابيبي.

إذن هي ابنته.. يودّ بشدة أن يسألها عن اسم أمها، لكنه يستمر:

- إزيك يا سلمى؟

تتجاهل الرد على سؤاله وهي تلهج من الفرحة وتقول صارخة بسعادة:

- افرح بقى يا بابي جايبالك خبر الموسم وكل موسم.

- خير يا حبيبتي؟

- شيمون يا باابي.

- شيمون؟!

- شفت يا بابي! قعدت تقولي بيلعب بيكي ومش جَد ومش عارفة إيه.

- ....

- أهـو وافـق النهـارده يـا بـابي إنـه يعـترف بالـلي في بطنـي، باركلي يـا بـاااابي.. وهنتجـوز الشـهر الجاي كـمااااان.

-١٧-

استيقظت بعد نحو ساعة.. أو ساعتين.. لم أهتم.

أول مـرة في حيـاتي أنـام في مـكان عـام وسـط نـاس لا أعرفهـم، ناهيـك بجنسـيتهم. لكـن لتوصيـل الصـورة -أو كمحاولـة- فـإن ثمـة روحانيـات أو شـعور عـام في ذلـك المـكان يتسـلل بنعومـة داخـل ثنايـا خلايـاك ويلتصـق بجزيئاتهـا وتـؤول لهـا السـيطرة عـلى كيانك، برضـا كامـل منـك تستسـلم وترتـد إلى حالـة الإنسـان الأول الخـالي مـن ضغـوط الحيـاة، الـذي لا يفكـر إلا في الأكل والـشرب والنـوم وأشـياء قليلـة أخـرى.

كان "أكـرم" مـا يـزال نائمًـا. تقلّبـت لأجـد شـيئًا غريبًـا أثـار خـوفي ودهشـتي معًـا. كان بجـواري تمامًـا رجـل يجلـس القرفصـاء في وضـع كأنـه يشـاهدني مليًـا، ويبـدو عليـه أنـه عـلى هـذه الحـال منـذ كثـير مـن الوقـت.. اعتدلـت مندهشًـا بشـدة وصرت جالسًـا في مقابلتـه، ولم يحـرك سـاكنًا!

فقـط عينـي في عينيـه ولم يبـدأ أحدنـا الحديـث. لم يبـدُ أنـه منهـم (جيراننـا)، وكان شـعره طويـلاً أشـعث يصـل إلى كتفـه، أبيـض -شـعره لا كتفـه- بياضًـا لا تشـوبه شـائبة، ذقـن بيضـاء قصـيرة،

كأنها إبر متناهية القصر تم غرسها في وجهه.. وكانت ملابسه رثة بالية، بنطلون أبيض قصير وتيشيرت أبيض ضخم يفوقه بثلاثة مقاسات على الأقل، متهدل لكنه غير ممزق.

لم يكن "عمر" موجودًا حولنا، و"أكرم" يبدو أن نومه سيطول.. اختلست النظر للعاملين في المكان فلم أجدهم.. فقط أبناء العم في استرخاء تام، وهذا الرجل المليء بالألوان البيضاء يحملق فيّ.

رفعت يدي بصمت محييًا إياه بابتسامة، رغم أنه على بعد نصف متر فقط.. فرفع يده بآلية ليرد نفس التحية دون ابتسامة. قلت له:

- أهلاً وسهلاً.

فأشاح بوجهه في كبرياء عظيم!

نظرت حولي وحانت مني التفاتة على قمة الجبل الذي يحدّ الكامب من جهة اليمين، لأجد "عمر" في وضعية من أغرب ما يكون. كان واقفًا وراء فتاتين متجاورتين تقومان معًا بتحركات جسدية متلوية فيما يشبه الرقص البطيء جدًا جدًا.. وكان "عمر" الذي لا أستغرب قيامه بأي شيء غريب، يقوم بتقليدهما في كل حركاتهما الراقصة، إن جاز تسمية ذلك رقصًا.

امتدت يدي إلى علبة سجائري، وعزمت على الرجل ذي الملابس البيضاء، فأخذ سيجارة بالفعل وقضينا دقائق ندخّن في

صمـت، لم يتكلـم، فسـألته أنـا:

- إنت منين يا حاج؟

وأخيرًا رد، بمشاورات كثيرة بيديه:

- أاااببباه إيييتاااب.

فهمـت.. وأكّـدتْ فهمـي شـابة تجلـس تحـت المظلـة المجـاورة مـع ثلاثـة مـن أصدقائهـا، قالـت لي بالإنجليزيـة:

- إنـه أبكـم.. وهـو يشـير لـك ناحيـة الجبـال لأنـه بـلا مـأوى.. هـو شريـد مسـكين، يظهـر أحيانًـا ويختفـي أحيانًا.

لم أردّ، هـززت رأسي وعـدت للأبكـم الـذي يبـدو عليـه أنـه لا ينـوي تَـركي لحـالي قريبًـا، وفي نفـس الوقـت لا أريـد أن أتجاهلـه فأهينـه. تحدثـت معـه بمحـاولات بائسـة للإشـارة، مـع تفهّـم كامـل وصـبر منـه عـلى غبـائي، كأننـي أنـا الأبكـم ليـس هـو.

تحدثنـا -صدقنـي- لمـدة ليسـت بالقصـيرة، وحـكى لي عـن أشـياء قـام بهـا أثنـاء حـرب أكتوبـر.. وقـام بتمثيـل مشـهد أنـه يمسـك بمدفـع رشـاش وتتتاتتاتاتاتاااا وجّهـه صـوب الحاضريـن في المـكان، وأشـياء مـن هـذا القبيـل. حـكى لي عـن حبـه لهـذا المـكان تحديـدًا وعـن تركـه لبيتـه في الجبـل كل حـين ومجيئـه هنـا للاسـتجمام!

التقطـتُّ كاميرتي وطلبـت منـه آخـذ بعـض الصـور، فأشـعره هـذا بسـعادة غامـرة، وكان يأخـذ أوضاعًـا ونظـرات كأنـه نجـم سـينمائي

رصين. رقّ قلبي لحاله وطيبته جدًا.. طلبت أن أدعوه إلى شاي أو طعام لكنه رفض، وطلب شيئًا آخر. طلب مني أن أزور المكان مرة أخرى ومعي كيس نوم لأعطيه له ليقيه البرد ويساعده على كثرة الترحال.

- والله هجيبهولك.

قلتها متأثرًا بحق، وشعرت بعاطفة كبيرة نحوه، ونوع من الالتزام كذلك كأنني مسؤول عنه بشكل ما.

استيقظ "أكرم" ليجدني في حوار محموم بالإشارة مع هذا الرجل، تلفت حوله، ثم سألني:

- فين "عمر"؟

فأشرت بيدي نحو قمة الجبل، وعدت لحواري المحموم الصامت مع الأبكم.. وتركته مع نفسه ليستوعب أنه استيقظ وسط إسرائيليين كثيرين، وقد وجدني أتحدث بلغة الإشارة مع أبكم لا نعرفه، و"عمر" يرقص ببطء فوق الجبل مع فتاتين!

أخيرًا جاءنا موظف الاستقبال الذي لا يكف عن الابتسام، ومعه شاب ودود ضئيل الحجم، وطلب منا أن نتبعه ليسلمنا الخوشة خاصتنا. استأذنت الأبكم فأشاح لي بيده (علامة غُور).. وذهبنا رفقة الشاب الضئيل إلى منطقة المبيت. الخوشة من الداخل بسيطة تمامًا، مجردة من أي شيء إلا بعض الكليم وثلاث مراتب، ووسادات قذرة، يستحيل أن أنام عليها.. سأضع

التيشيرت ككيس وسادة ثم أحرقه لاحقًا بعد انتهاء كل هذا.. وأمام الخوشة مساحة مظللة بخوص ممتد من سقف الخوشة نفسها، وكراسيها عبارة عن دكة حجرية طويلة تصلح للجلوس أو الاتكاء.

سألت ذلك الشاب:

- اسمك إيه؟

- سوسو.

- ... (صُدمت).

- بس ده اسم الدلع.

- ... (اشتدت صدمتي).

- اسمي الحقيقي إدريس

- ...!

- ودي سيجارة حشيش لبناني هدية استقبال لكم.

- حبيب قلبي يا سوسو يا شهم يا كريم يا جدع.

كان حشيشًا غريبًا، في درجة لونه الفاتحة جدًا، وقوامه الطري إلى حد كبير، ورائحته الخفيفة.. شكرنا "سوسو" عمومًا، واتفقنا أنه سيكون مورّدنا بالمؤن في الأيام القادمة، كبيزنس لا هدايا. أشعلنا سيجارة معًا وجلسنا نتبادل حوارًا سريعًا،

وسألت "سوسو" عن سبب تسمية هذا المكان بذلك الاسم "راس شيطان"، فأجابني إجابة محبطة للغاية، فقد قال إن "ولاد العبيطة" لا يعرفون أن تلك الرأس، وأشار إلى تلك التبة الصغيرة صارخة النتوءات والتضاريس، الممتدة من الشاطئ لتخترق البحر لأمتار، تقسم هذا الشاطئ إلى شاطئين.. فسمّوها قديمًا "راس شطّين"، وتحوّر الاسم مع الزمن ويترسخ ليصبح "راس شيطان".. لدرجة أنه صارت له ترجمة شبه حرفية بمسمى Ras satan.

وجاءنا "عمر" بعد وصلة الرقص البطيء الجبلية تلك، وشرح لنا أن هذا لم يك رقصًا، بل طقوس يوجا وزن، وقد وافقتا الفتاتين على تعليمه في كذا جلسة.

المكان مبهر بحق.

سألنا على أسعار كل شيء، وقمنا بحساب ما معنا من نقود، وخططنا ميزانية يومية بها بعض التقشف لضمان البقاء أكبر عدد من الأيام.. كان الحديث عن الشغل وخطة كل واحد منا في الحصول، من هنا، على إجازة إضافية لما بعد أيام العيد وصعوبة ذلك، كان هذا الحديث في ذلك الموضوع في هذا المكان الطاهر أشبه بمن يأتيك أثناء التهامك بنهم لوجبة شهية عظيمة، ويذكّرك بوالدك الراحل ويسألك عن مدى افتقادك له.

قضينا يومين في استرخاء بدني وروحاني لا تصفه كلمات..

امتلَكَنا المكان تمامًا.. ومررنا بالعديد من المواقف الغريبة، فمثلاً في غدائنا في اليوم الثاني كنا نأكل دجاجًا مشويًا، وإذا بثلاثة كلاب بلدي تأتي لا أعلم من أين، وتستقر بجوارنا تمامًا مولية إيانا ظهورها. تلك هي أقرب مسافة سمحت فيها لأي كلب في حياتي ببلوغها. اللطيف أن الكلاب لم تنظر نحونا أبدًا طوال تناولنا الطعام، وبمجرد انتهائنا وقفت الكلاب ونظرت إلينا طالبة العظام.. كلاب بلدي لكن مهذبة للغاية. أخذت أنا و"أكرم" في تقطيع بواقي الدجاج وإطعامها لتلك الكلاب اللطيفة، وأخذنا نتحدث وصار إطعامنا لها أوتوماتيكيًا، إلى أن لاحظت أن يدي الممدودة بقطعة من الجلد لا تزال معلقة دون أن يأكلها الكلب.. فأجفلت كوني تنبهت أن القطعة صغيرة للغاية وسيقضم الكلب يدي مع قطعة الجلد لا محالة.. نظرت إليه لأجده في حالة كفاح ومعاناة كاملتين يحاول أن يلتقط القطعة الصغيرة دون أن يلمس يدي نفسها. لقد عشقت هذا المكان وأحببت كل تفاصيله.

لا تسألني عن "عمر" من فضلك، فأنت تعرف أنه فوق الجبل يفعل أو يرقص يوجا.

وكان الشيء الأكثر تميّزًا على الإطلاق في اليوم الثالث.. هو تعارفنا بـ"ميزو".. و"الحيزبونة".

-١٨-

تنـزل تلـك الجُمـل التـي قالتهـا "سـلمى" لـ"حـازم" عـلى رأسـه كالحجـر الثقيـل.. تتكهـرب كل ذرة وتشـتعل كل خليـة في جسـده، يتبـدد تمامًـا الفخـر الـذي كان يملـؤه منـذ قليـل، ولا يـدري مـن أيـن يمسـك طـرف خيـط الاسـتجواب.. لا يـدري أي شيء، فـيسـأل أول سـؤال يخطـر ببالـه، بحلـق جـاف وصـوت مبحـوح:

- طب والدين يا "سلمى"؟!

- يـووووه يـا بـابي بقـى.. وإنـت مالـ... قصـدي إحنـا مالنـا ومـال دينـه.. هـو وعـدني إن ابننـا هيكـون حـر وخـلاص يختـار الـلي هـو عايـزه.

لم تزعجـه تلـك الكـوارث التـي يسـمعها أو مصـير ابنتـه فحسـب، بـل أثـار رعبـه تلـك الأريحيـة التـي تتحـدث بهـا، مـا يوحـي بـأن هنـاك تغيـيرًا مجتمعيًـا وفكريًـا وجغرافيًـا صارخًـا للغايـة، وشـديد التطـرف في اتجـاه شـيطاني تمامًـا.. فـيتمالـك نفسـه ويقـول:

- طيب.. سيبينا من الموضوع ده دلوقتي.. قولـ...

- لاااا يا باااابي لاااا باركلي الأول.

- طـب مـبروك يـا حبيبتـي.. بقولـك يـا "سـلمى".. معايـا ابـن واحـد زميـلي بيعمـل بحـث.. وسـألني كام سـؤال كـده.. عايـز أشـوف رأيـك فيهـم.

- نعم؟ بحث؟ تسألني أنا؟ وأنا مالي أصلاً؟

يقـول "حـازم" بصـوت يجاهـد ألا يخـرج مرتجفًـا، وسـيارته تجـوب تلـك الشـوارع النظيفـة وسـط البنايـات المنمّقـة والأشـخاص الذيـن يبـدو عليهـم التحـضّر والرقـي:

- معلش يا حبيبتي الموضوع ضروري.

- ولا فيـه بحـث ولا حاجـة يـا بـابي متضحكـش عـليّ.. وعمومًـا ريّـح نفسـك.. هسـقط في اختبـار المعلومـات زي كل مـرة.. نرجـع لموضوعنـا بقـى.

- "سـلمى".. خليـكي معايـا وجـاوبي الـلي هسـألك عليـه ضروري.. ومكافئتـك إني هعـزم الكلـ .. هعـزم "شـيمون" ع الغـدا عشـان نحتفـل كلنـا بالأخبـار الجميلـة دي.

تـصرخ "سـلمى" فرحًـا ويـكاد أن يـصرخ "حـازم" كمـدًا، ويتمالـك نفسـه ويقول:

- وهجيب خمرة كمان في الحفلة.

- بـابي.. إنـت عـارف إني مبشربـش.. متسـألنيش تـاني لـو سـمحت السـؤال ده.

- لأ طمنتيني يا بنتي! طيب.. إنتي عارفة أنا راجع من إيه دلوقتي؟

- طبعًا يا بابي.. شرفتنا.. ده الدنيا كلها بتتكلم.

- عظيم.. قوليلي يا حبيبتي، مصر بقالها أد إيه كده؟ يعني إحنا من إمتى كده؟!

- من إمتى إيه مش فاهمة؟!

- يعني.. أغنيا.. وبنفكر.. وعندنا عِلم.. وبنحسّن العالم.. متقدمين يعني يا "سلمى"!

- إيه السؤال الغريب ده؟! معرفش.. من ساعة ما اتولدت يمكن.

- طيب بلاش.. ليه المؤتمر ده كان في الصحرا؟ قصدي قرب سيوة؟

- أومال هيتعمل فين يعني؟

- قصدك إيه يا "سلمى"؟

- بابي أنا مش مثقفة أيوه بس مش للدرجة دي يعني.. مؤتمر بالحجم ده لازم يتعمل في العاصمة طبعًا.

- سيوة عاصمة مصر؟!

- إيه الفصلان ده يا بابي؟ للدرجة دي فاكرني ميح؟!

- "سلمى" يا حبيبتي.. عشان خاطري.. متاخديش أسئلتي ع الناحية دي.. ردي عليّ وخلاص وهشرحلك كل حاجة في الآخر.

- حاضر.. لااء.. عاصمة مصر مش سيوة طبعًا.. سيوة مدينة جوة العاصمة نفسها اللي اسمها الوادي الجديد.

- طب والقاهرة يا "سلمى".. مش العاصمة ليه؟

- معرفش بصراحة يا بابي.. اللي أعرفه إنها كانت قبل الوادي الجديد.

- طب مساحة مصر كام؟

- لا دي صعبة أوي.

- رئيس مصر اسمه إيه طيب؟

- المحافظ؟ اسمه إبراهيم شوكت طبعًا.

- الرئيس؟

- المحافظ مش الرئيس.. أنا فاهمة الفرق كويس.

- طب ليه محافظ مش رئيس؟

- أيوه كده أنا بحب الأسئلة السهلة.. مش مساحة مصر كام!

- تمام، ليه محافظ مش رئيس؟

- عشان إحنا من الدول العشرين اللي بيتبعوا للأمم المتحدة

والوصايـة الدولية.

- اشرحيـلي يـا "سـلمى" الحتـة دي بالتفصيـل.. إيـه الـدول العشريـن دول؟

- الـلي أعرفـه إن زمـان كان فيـه كام بلـد في العـالم كانـوا عاملـين مشـاكل كتـير مـع بـلاد كتـير.. ولمـا انهزمـوا واحـدة ورا التانيـة اتفقـت الأمـم المتحـدة إنهـا تبقـى وصيـة عليهـم كلهـم مبـاشرة.

- يعني جيشنا بيحمي إيه بالظبط؟

- جيـش إيـه يـا بـابي؟! مـا إنـت عـارف إن الـدول دي ممنوعـة مـن امتـلاك جيـوش.

- اللـه! يعنـي الأمـم المتحـدة وصيـة علينـا وقـوات حفـظ السـلام هـي الـلي بتحمينـا مـن أي اعتـداء؟

- لا طبعًـا.. جيـش شـوية دِوَل مـن أعضـاء الأمـم المتحـدة هـو الـلي بيحمينـا.. وهـمّ ليهـم قواعـد كتـير في مـصر.. الموضـوع متأمّـن حلـو أوي.. وبعديـن مـصر جوهـرة العـالم أصـلاً.. الـلي يقربلنـا الجيـوش دي هتاكلـه.

"ألن يوقظني أحد بعد؟!".

يـكاد قلـب "حـازم" أن ينخلـع مـن صـدره مـع كل رصاصـة تطلقهـا عليـه "سـلمى".. فيسـتمر في أسـئلته بأنفـاس متقطعـة:

- طيب.. اتعرفتي على "شيمون" فين يا "سلمى"؟

- أيوه كده يا بابي هي دي المواضيع.. مش مساحات وعواصم. مع إنك عارف كويس الإجابة بس الموضوع ده أحلى طبعًا.. ها؟ هنعزمه إمتى؟

- طب فكريني بس الأول.. اتعرفتوا على بعض إزاي؟

- في رحلة السويس اللي طلعتها من سنة.

- وهو كان بيعمل إيه في السويس؟

- إيه اللي بيعمل إيه؟ بيشتغل!

- بيشتغل إيه؟

- ظابط.. بيحرس حدود بلده.

- ...!

- بابي؟

- "سلمى".. "شيمون" إسرائيلي.. صح؟

- أكيد.. من مواليد سينا.

يشعر "حازم" ببرودة الثلج تكسوه بالكامل، وفي تلك اللحظات تصل السيارة التي تقلّ "حازم" إلى وزارة المالية، ليملأ عينيه مشهد العلم المصري يرفرف خفّاقًا فوق البوابة الأمنية.. بلونه الأحمر والأبيض والأسود، والنسر الذي يتوسطه.. وعلامة الأمم المتحدة في ركنه الأعلى الأيسر!

-١٩-

أستطيع أن أجزم دون تحفظ كبير أن "ميزو" هي سيدة هذا المكان.. نعم، هي امرأة. لمحناها في دخولنا راس شيطان لأول مرة، ثمّة نقاء كبير يفيض ويشعّ منها، وجهها صافٍ كأنها طفلة لا امرأة أربعينية.. نظراتها وتحركاتها وجلساتها وحيدة في مواجهة البحر في صمت.. لديها سَكينة واطمئنان حسدتها عليهما. ملابسها عبارة عن أقمشة ملفوفة عليها.. شعرها الغجري معكوص بعشوائية محببة، وكأنها ترسل منه رسالة أن من "لا يعجبه فليحترق بعيدًا عني".. راقبتها خِلسة في اليومين السابقين، واستنتجت أنها ذات شأن ما في هذا المكان.. يعرفها أغلب الناس ويلقون عليها تحيات قصيرة تردها بلطف قبل أن تعود للتأمل.

بعد أن تعوّدت المكان وصرت أشعر أنني أحد مالكيه، قررت في ذلك اليوم أن أستكشف هذه المرأة عن قرب. انزعج "أكرم" كثيرًا من هذا لكنني أخبرته أنني سأتولّى الموضوع. جاءنا برّاد الشاي فصببت كوبين وذهبت لها في جلستها الصامتة أمام البحر. كنت قادمًا من خلفها فاتجهت جانبًا قليلاً كي لا أصيبها بالفزع، واقتربت ببطء وألقيت عليها صباح الخير بالإنجليزية،

فلم تلتفت إليّ ولم ترفع عينيها عن البحر.. لكنها ردت بإنجليزية ذات لكنة فرنسية:

- اجلس.. بجانبي.

"مُبْهرة!".

جلست وناولتها شايًا وسيجارة، أشعلَتْها وظلّت تتأمل البحر كأنني سرابًا ملقَى بجانبها. مرّت دقائق كثيرة دون أي كلمة.. نظرت لـ"أكرم" لأجده نائمًا تحت جذع نخلة. طالت دقائق الصمت فنَويت أن أقوم عندما أنتهي من الشاي.. فنظرَت نحوي أخيرًا وفاجأتني كلماتها الأولى معي:

- حياة العاصمة سيئة.. صحيح؟

"كيف عرفتِ يا مدام؟ هذا بالظبط ما يملأ ذهني!".

وفُتحت ماسورة الكلام.. تحدثت هي أكثر بكثير مما سمعَت.. عرفت اسمها، وهو صعب جدًا لم أستطع تكراره من المرة الأولى، فقالت لي إنها مشهورة بنصفه الأول "ميزو".. من سويسرا هي.. كانت تعمل مديرة تسويق في كريستيان ديور! إلى أن جاءت هنا مصادفة منذ... منذ... إحم.. أربعة عشر عامًا!

- متَّصلة؟

- لا.. رجعت إلى سويسرا بعد عامين من استقراري هنا.. وبعد شهر واحد هناك تأكدت من صحة اختياري، فعُدت إلى هنا

مـن جديـد.

- ومن أين تأتين بمصاريف المعيشة؟

لم تـردّ ونظـرت إليّ باحتقـار، وعرفـت لاحقًـا أن صاحـب المـكان لا يطلـب منهـا نقـودًا نظـير المبيـت في خوشـة مسـتقلة ولا الطعـام ولا الـشراب.. مـن بـاب أن وجودهـا بَرَكـة أم مـاذا، اللـه أعلـم! سـألتها عـن الملـل المتوَقّـع، كيـف لم يضربهـا! فأعطتنـي محـاضرة عـن (نسـبية الأمـور، وعـن تصديـق الأوهـام، وعـن الـدوران في سـواقي، وعـن مسـيرات القطعـان، وعـن حتميـة الانسـياق، وعـن إدمـان الترهـات، وعـن بريـق الأغلبيـة، وعـن الجـري في السـباقات الحتميـة المحمومـة).. كل هـذا في مواجهـة إطاعـة الفطـرة!

كانـت تتكلـم بهـدوء وثبـات غريبـين.. وشـعرت أن حديثها يتسـلل داخـل عقـلي بنعومـة مـع تلـك الموسـيقى الحيـة التـي لا تتوقـف مـع أصـوات موجـات هادئـة تـأتي متقطعـة مـن البحـر.. شـعرت أننـي في جلسـة غسـيل مـخ، لكـن مـا غـرض "ميـزو" إن كان هـذا فعـلاً مـا تفعلـه، غسـيل مخّـي.. ولكـن مـن قـال إن غسـيل المـخ شيء سـيئ، بالعكـس، الغسـيل يُنظّـف.. والنظافـة مـن الإيمـان.. وكل مـا تقولـه منطقـي. وكأنهـا قـرأت أفـكاري فاسـتمرت:

- رسـولك عندمـا جـاء بدينـك إلى الأرض، اتّبعتـه أعـداد قليلـة جـدًا.. لـو عـاد بـك الزمـن إلى تلـك الفـترة، هـل كنـت سـتنتمي إليهـم.. هـؤلاء ذوي الأعـداد الشـحيحة.. أم ستسـتمر مـع الغالبيـة الكاسـحة مـن البـشر في انتمائهـم؟

- "إنتي عايزة إيه يا ست؟!".

قاومت ابتلاع كل ما تقوله "ميزو"، حتى لا تنتهي حياتي وأنا ألبس أقمشة حول جسدي وأعيش متأملاً البحر في انتظار شخص يجيئني بكوب شاي ويقول «صباح الخير».. المكان رائع، نعم.. وكل ما ألمحَت عليه من بيع المرء حياته لطاحونة العمل والحياة والأقساط صحيح تمامًا.. لكنها الحياة.. لكنها للأمانة حياة مقيتة.. لكنها الحياة عمومًا، كما هي مع من تعرفهم وتحبهم.. لكن حياتهم جميعًا ليست ملكهم، نحن جميعنا مِلْك لسيستم بغيض.. لكنها الحياة.. والله يخرب بيت أم دي فكرة وأم دي كباية شاي وأم دي قعدة سودا.

أخيرًا استيقظ "أكرم" من غفلته وانضم إلينا بعد أن حيّا "ميزو" بقدر ما استطاع أن يظهره من ودّ، فصمتت قليلاً قبل أن تقول شيئًا غريبًا:

- فيه فن القاهرة توجد شجرة كبيرة.. أتعرفانها؟

- هاه؟!

أعادت تلك الجملة الغريبة بصبر ثلاث مرات متصاعدة البطء وهي تتكئ على الحروف.. ونحن لا نفهم. فسألها "أكرم" سؤالاً أغرب:

- هل أنتِ فرنسية؟

- لا.. أنا سويسرية من الجزء الناطق بالفرنسية.

فقال "أكرم" بالعربية موجّهًا كلامه لي:

- قصدها في "قلب القاهرة" مش "فن القاهرة".. اللي بيتكلموا فرنساوي مبيعرفوش ينطقوا كلمة أولها إتش فبيمسحوه.. زي "أوتيل" كده.. هي قصدها "هارت" مش "آرت".

وكأن هذا قد حلّ لغز السؤال، وإن كان أضاء شمعة ما. فأجبناها بالنفي. فقالت إن هذه الشجرة العجوز في منطقة حديقة الحيوان.. ونصحتنا أن نذهب إليها كلما يشتد بنا جوع التجرّد من الحضارة، وهي -الشجرة- ستقوم بالواجب. كتم "أكرم" الضحك بينما لمستني كلماتها فسألتها كيف أعرفها، خصوصًا أن تلك الحديقة في الجيزة لا القاهرة.. فقالت إنني سأعرفها بمجرد أن أراها.

"ولماذا أمشي في شوارع الجيزة أتأمل الأشجار وأبحث عن كبراهم؟ لماذا لا أبقَ هنا؟".

تحدّثنا كثيرًا وازداد إعجابي بتلك المرأة النقية، وصرت أحسدها من كل قلبي على استطاعتها التحرر من منظومة سَلْب الحياة التي تمتلكنا.. إلى أن ظهرت فجأة كالقضاء المستعجل امرأة أخرى، انضمّت إلينا بكثير من الصوت العالي والكلام الكثير والضحك المفتعل بجنون.. تبدو أنها صديقة لها، وإن بدا تحفّظ كبير على وجه "ميزو" ومزاجها العام بمجرد انضمام تلك المزعجة لنا.

كانت تلك المرأة تلبس أسمالاً كثيرة زاهية الألوان وأقمشة

متدليـة مـن كل مـكان وعقـود تشـبه المسـابح تتـدلّى مـن عنقهـا، وأسـاور بلاسـتيكية كثـيرة في معصميهـا.. أسـنانها متـآكل معظمهـا.. بشرتهـا تملؤهـا التجاعيـد.. عيناهـا جاحظـة زرقـاء.. شـعرها لا يختلـف كثـيرًا عـن سـلك المواعـين.. يسـتخدم كثـير منـا ذلـك المصطلـح الكوميـدي لوصـف الشـعر غـير الجيـد.. لكـن هـذه المجذوبـة شـعرها كان يشـبه سـلك المواعـين حرفيًـا، في ملمسـه ولونـه وتلافيفـه، أعتقـد لـو تـم إحراقـه سـيعطي نفـس التأثـير وتطايـر الشـظايا.

تبـدد منـي كل شـعور بالسَـكينة بمجـرد أن جثمـت تلـك المـرأة علينـا دون إنـذار.. كانـت مـن الطـراز الـذي يقـترب منـك بشـدة أثنـاء حديثـه.. تقـول المزحـة وتضحـك عليهـا بعنـف وهـي تصفـع ظهـرك. لا عجـب أن يظهـر الضيـق عـلى "ميـزو" بمجـرد انضمامهـا إلينـا. في الثـواني التـي صمتـت فيهـا سـألتها وعرفـت أنهـا هنـا منـذ عشريـن عامًـا متصلـة.. وعرفـت أنهـا مـن رومانيـا واسـمها شيء ما.. لكـن "الحيزبونـة" هـو التسـمية الأكـثر ملاءمـة دون داعٍ للتفكـير في غـيره.

وفجـأة، شـقّت طمأنينـة المـكان صرخـة طويلـة مدويـة.. صرخـة شـابة تقـف هنـاك بالأعـلى.. عـلى قمـة الجبـل!

- الله يخرب بيتك يا "عمر"!

-٢٠-

لا نَعلم الكَثير عنْ "واعظ"، ولا عَنْ قُدْراتِه وأَساليبه، فَقط نَعرفُ أنّه صُورَة طِبْق الأصْلِ مِنْ "قائظ"، ويُناقِضُه تَمامًا في أي شيء آخَر. نَعلمُ أنّه يُكافِح حقًّا في اللحَاقِ بـ"قائظ"، ومَنْعِه مِنْ مُرادِه، ويترقّبُ "الأنور" ظُهورَه بشغفٍ وقَلق. لا نَعْلم ماذا حَدثَ لجنودِه، وماذا أُلقيَ عَليْه مِنْ لعَنات، نعلمُ فقط أنّه جاهدَ بشدّة للتَخلّصِ منْها، وفقدَ معها الكثيرَ مِنْ قُدراتِه. لا نَعلم يقينًا مَتى وكيْف استطاع أنْ يَرْمي رَميتَه الوحيدةَ المُمكِنة على "حازم" -بطلنا الذي لا يعرف أنه بطلنا، الذي يظن نفسه في حلم وما هو بحلم- في الثانْية السابقة لطَعْنِه "شارون". لا نَعْلم كيف فَعَلها، لكننا نَعلمُ أنّه -فقط- استطاع أنْ يَفْتحَ لـ"حازم" طاقةً يَرى منْها مَشْهدًا مستقبليًّا مترتّبًا على تلك الطّعنة التي ستنفذُ حالاً في عُنق "شارون".

كُلّ ما رآه "حازم" في المستقبَلِ مَرّ أمام عينيه في جزءٍ خاطفٍ من الثانية.. يشبه الأمر كثيرًا عندما تنظر إلى زجاج نافذة سيارة يكسوه التراب، فترى انعكاس وجهك إذا شئت.. أو القلب الذي رسمه عاشقان على التراب إذا شئت.. أو ما بداخل السيارة إذا شئت، بينما أنت تنظر على نفس السطح.

يحاولُ "واعظ" بشدّة أن ينقلَ اليقينَ إلى "حازم"، أنّ ما رأى منْه لَمْحة، هو نتيجةٌ فِعليّة لتلك الطعنةِ السوداء، لكنّه لم يسْتطع.

****

يقف "حازم" الآن من جديد في الظلام في سيناء، في الصفوف الأمامية للجيش الإسرائيلي.. و"شارون" يمدّ يده ويخرج الـDog lable المحتوية على بيانات الجندي.. يقبض "حازم" بقوة على مقبض الخنجر البارد وهو يرتجف ويتصبب عرقًا وقد زلزلت كيانه تلك الرؤيا التي مرّ بها.. يحاول أن يسيطر على أنفاسه المتسارعة.. يتساءل: هل ذلك الخنجر المخفيّ في كمّه هو ما أدى إلى تلك المصائب التي شاهدها؟ هل هي رؤيا شيطانية غرضها إثناؤه عن تمزيق أوردة "شارون"؟ هل يطعن "شارون" أم يتركه؟ هل تتكرر فرص مثل هذه؟! هل هذا حلم؟!

يرفع "شارون" عينيه من سلسلة "حازم"، وينظر إليه بعينيه الوقحتين، ويقول ببرود:

- أنيحينه ميتسيخيم إلزيه؟!

يندهش "حازم" أنه لم يفهم تلك المرة بالذات؟ سمعها بالعبرية كما هي!

إذا نطق سيتحدث العربية بكل تأكيد!

"شارون" ينتظر الردّ.

فيتخذ "حازم" قراره النهائي بثقة ويقين.. وبلا رجعة.

-٢١-

يقرّر "حازم".. لن يفعلها.. حتى لو كان هو نفسه الثمن.

يكرّر "شارون" سؤاله بلهجة أعنف، وهو يمسك "حازم" من يا قته:

- أنيحينه ميتسيخيم إلزيه كيتسيت؟!

يغمض "حازم" عينيه بشدة، ويرخي قبضته على الخنجر، ويتلو الشهادتين مرارًا في سرّه.. ليسمع صوتًا معدنيًا يرنّ داخل أذنيه، قائلاً بلهجة خالية من المشاعر:

- "كلير".. خُد ممرّ سبعة.

يفتح عينيه فيخفق قلبه بعنف مما يراه، ويتكرر الصوت المعدني الجادّ في أذنيه:

- نسر ٣٧.. يُرجى التأكيد.

أمام عينيه يمتد ممر أسفلتي طويل يبدو أن لا نهاية له، بينما هو يجلس بالفعل داخل كابينة طائرة حربية، وأمام عينيه الكثير من المؤشرات والأزرار والأذرع.. يتحسس رأسه

ليجد أنه يلبس خوذة تنسل من خلالها كلمات ذلك الذي يحدّثه داخل أذنيه.. فيردّ بصوت مرتجف:

- عُلِم.

تخرج كلماته بإرادته.. ولا يستطيع تمييز اللغة، هو يفهمها كأفكار، لكن أي لغة بالضبط، ليس متأكدًا. لا يفهم أي شيء عن أنواع الطائرات ولا التسليح الجوي لمصر أو إسرائيل.. لكن الحقيقة واضحة مرأى الشمس، هذه طائرة حربية مقاتلة.. يبحث حوله عن أي علامة تخبره إلى أي الجيشين ينتمي الآن، فيجد أخيرًا على جانب كمّه الإجابة المباشرة.. علم مصر، فيكبّر بحماس، ويعطي أوامره لعصا التحكم والدواستين مع رفع أذرع وضغط أزرار، ويكرر لبرج المراقبة:

- عُلِم.. نسر ٣٧ هعمل تاكسينج.. والكلايم من ممر سبعة.

وتتحرك طائرته ببطء.. ويداه بمهارة، ويقول لبرج المراقبة:

- تاريخ النهارده كام للتأكيد؟

تزيد سرعة الطائرة على الممر.. ويعدّل "حازم" خوذته.. وتتسارع الطائرة بشدة.. ويجذب الذراع، فيترك كوكبُ الأرض طائرةَ "حازم" منخفضًا وتنطلق هي كالشهاب، وتأتي إجابة سؤاله في أذنيه قبل أن يستمر في الانطلاق إلى مهمته.. ليعرف أنه الآن في أتون أيام مشهودات.. أيام شهد لها القاصي والداني.. يقول له بصرامة الصوت المعدني القادم من برج المراقبة:

- ستاشر أكتوبر تلاتة وسبعين.. ربنا معاك.

*****

بسببِ الحَدَث والزّمان والمَكان قدْ نعتقدُ أنّ "واعظ" هو مَنْ فَعَلَها.. هوَ منْ رَمَى رمْيته وألقَى بـ"حازم" في ذلك الزمن.. لكن دعنا نتذكّر أنّ "قائظ" يسبقُ "واعظ" بخطواتٍ كثيرة.. جُلّ ما استطاع "واعظ" فعْله في الجَولة السابقة أنْ كشفَ لـ"حازم" لمْحة مستقبليّة ناتجة منْ فعلتِه التلقائيّة وطعنته لـ"شارون"، التي تراجع عنها في اللحظات الأخيرة.. فعليًّا كانَ "قائظ" ذو الضربات العشوائية هو منْ رَمَى رميته مِنْ جديد وأتى بـ"حازم" إلى السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٧٣.. بعد أنْ خيّب "حازم" خطتَه في أكتوبر ١٩٥٦.. ومن جديد يلهث "واعظ" ويكافح ويناور ويلاحق تلك المعمعة الجديدة الموشكة على البدء.. ومن جديد ليس بمقدوره -إنْ وصلَ في الثانية المناسبة- إلا أنْ يكشفَ النتائج الجديدة لأي فعل إراديّ يقوم به "حازم" في تلك الجولة.. و"حازم" ينطلقُ بطائرتِه في تلك الأيام الملحمية التي وجد نفسه في قلبها، إلى موقع أهم حدث في ذلك اليوم.. حدثٌ كادَ أنْ يَقلبَ الأمورَ جميعها رأسًا على عقب.. حدثٌ يظنّ "حازم" أنّ منعه يمهّد الطريقَ لوطنِه لنصرٍ ساحقٍ ماحق.. ينطلقُ بطائرتِه إلى البحيرات المرة جنوب قناة

السـويس.. ينطلـق إلى هنـاك لأنـه يعـرف أنّ في تلـك اللحظـات يعـبرُ الجيـشُ الإسرائيـلي بقيـادة "شـارون" قنـاة السـويس عبـورًا عكسـيًّا.. نحـو الغـرب.. ويدخـل مـصر.

-٢٢-

بـددت تلـك الصرخـة الأنثويـة الملتاعـة كل الطمأنينـة التـي تعـم المـكان. توقفـت الموسـيقى وتوتـرت الأعصـاب وتحفّـز الجميـع وانطلـق العديـد مـن الشـباب (أبنـاء العـم) نحـو الجبـل ركضًـا بسرعـة هائلـة. كلّي يقـين أنـا و"أكـرم" أن "عمـر" ارتكـب شـيئًا مـا هنالـك دفـع تلـك ابنـة العـم للـصراخ هكـذا، لكنـه مهـما كان مخطئًـا فلـن نتركـه لهـؤلاء المتحمسـين ليفتكـوا بـه، فانطلقـت أنـا و"أكـرم" تلقائيًـا في الركـض وراء الراكضـين نحـو الجبـل، فظـنّ آخـرون أننـا نركـض وراء الراكضـين لنفتـك بهـم، فركضـوا بدورهـم وراءنـا.. أعتقـد أنـه لـو كان هنـاك مصريـون غيرنا في المـكان -بخلاف العاملـين- لاتخـذوا دورهـم في المطـاردة وراء الراكضـين الجـدد.. وهكـذا وهكـذا إلى أن نشـكّل جميعًـا طابـورًا طولـه كيلومـترات يجـري نحـو ذلـك الجبـل.

لم يسـتمر هـذا الوضـع المتوتـر أكـثر مـن ثـوانٍ قبـل أن تجلجـل ضحكـة أنثويـة أخـرى مـع صراخ الشـابة التـي أشـعلت الموقـف، مـا أوحـى لنـا جميعًـا أنـه لا توجـد أزمـة هنـاك، فـبردت الأعصـاب واسـتمر بعضهـم -ونحـن طبعًـا- في الصعـود للجبـل عـلى أي حـال، ولقتـل أي شـكّ كذلـك.

وصلنا قمة الجبل الصعب ونحن نلهث، فارتمينا أرضًا جميعنا، وانطلقوا هم في حوار لاهث يستفسرون من الشابتين، ونحن نسبّ "عمر" ونسأله وسط لهاثنا أيضًا.. فقال "عمر" إنها بهيمة و"ملهاش في الطيب نصيب" وكلام مثل هذا.. سألته إن كان يقصد ما ظننته، فنفى وفاجأني بأنه عَرَض عليها شراء قلادة مماثلة من تلك الـ... (ما اسمه ذلك الشيء).. تلك التي في صدره التي تشبه اللبّانة ذات الستة الآلاف جنيه، وأن هذه الفرصة ستغيّر حياتها للأبد وستجعلها مليونيرة بمجرد أن تنمو شجرة عملائها في غضون ثـ... بلا بلا بلا بلا.

وددت من كل قلبي أن أحتضن تلك الشابة التي صرخت، تضامنًا معها، وعرفت أن سبب صراخها أن كثيرًا من أصدقائها هناك -في المكان الذي جاءت منه- عرضوا عليها كثيرًا وبإلحاح لزِج نفس هذا الموضوع، وعندما فاجأها "عمر" بمشروعه الذي يغير حياة البشر صرخت في مزيج بين المزاح والانفجار مللاً وإعلان الرفض القاطع مقدمًا. أما "أكرم" فانطلق في وصلة تعنيف شديد لـ"عمر":

- إنت عايز تتاجر مع دول؟ وعلاقات بقى واتصالات! إنت اتجننت؟!

ردّ "عمر" ردودًا كثيرة بها من المنطق شيء، وإن لم يبدُ عليه أنه يبالي بشدة بهذه الأخلاقيات.. تلفَّتُّ حولي لأرى المشهد لأول مرة من هذه القمة المرتفعة.. مشهد خلاب لا يوصَف

سحره.. لا يوصَف بأي حال من الأحوال.

قضينا ساعة ندخن ونتحدث ونتأمل.. ندخن ونتحدث ونتأمل.. ندخن ونتحدث ونتأمل، قبل أن ننزل من جديد ليستقبلنا الجميع بالأسفل استقبال الفاتحين، رحّبوا بنا وبهم ترحيبًا من القلب كأنهم أول مرة يروننا.. السبب معروف، الشدّ العصبي الذي سبق صعودنا الجبل وبوادر المشكلات عندما تبددا حل محلهما الود البشري الطبيعي الجانح إلى الأمان.. رددنا الترحيب بلطف حذِر مقابل، دون إفراط. وجاءتني "الحيزبونة" مهرولة ممسكة بزجاجة خمر وهي تكشف عن أسنانها النخرة، وقالت لي بصوت عالٍ غير متزن:

- هذا الجبل ملكي.. هذا الجبل لي؛ لا تصعد ثانية دون إذْن.

وانفتحَت في وصلة ضحك هستيري مقزز وهي تضربني على ظهري العاري بكفها مرات عديدة، فوددت أن أصعد معها الجبل لألقيها من قمته، قبل أن أدخّن سيجارتين وأنزل من جديد لأكمل يومي. ثم التفتَت صارخة من بعيد لـ"ميزو" التي كانت عائدة إلى خوشتها:

- لا يعلمون يا "ميزو".. يظنونني سكرانة.. لا يعلمون.

لم تردّ عليها "ميزو" وثمة اشمئزاز يكسو وجهها تحاول أن تخفيه، تجاهلَتها واستمرت في طريقها بهدوء، بينما ابتعدت "الحيزبونة" وهي تترنح وترتجل أغنية قذرة بصوت مشروخ:

- الجبل ملكي.. لا يعلمون.. الجبل ملكي.. سيهلكون.

إلى أن اختفت تمامًا، وعادت الموسيقى تملأ المكان رويدًا رويدًا، وعادت الطمأنينة وكل شيء أصبح في مكانه من جديد.

جلست أرضًا ساندًا ظهري على جذع نخلة عاقدًا ذراعيّ أمامي، و"أكرم" بجانبي متكئ على وسادة، و"عمر" في لحظة نادرة يشاركنا الجلوس وهو يقوم بالتطبيل على طبلية أمامنا على رتم الموسيقى التي تلعبها مجموعة جالسة في مظلة مجاورة لنا. لم أدرِ كم من الوقت مرّ هكذا، وهي إحدى المميزات الرئيسية هنا.. إلى أن وجدت شابة كنت أراها كثيرًا في الأيام السابقة، وجدتها قادمة من بعيد تتحدث مع كل مجموعة جالسة لثوانٍ قبل أن تنتقل لمن يليهم حتى جاءت أمامنا، فسألتنا ببساطة بالإنجليزية:

- أتودّون أن تأكلوا مجلوبة في الغداء؟

لم تبدُ جرسونة، فأدهشَنا سؤالها، وردّ "عمر":

- ستدعيننا عليها أم ماذا؟

فاندهشَت بدورها وقالت مبتسمة:

- ظننتكم تعرفون. المجلوبة لا يتم طهيها هنا لأقل من أربعة أشخاص.. وأنا وصديقتي نودّ أن نأكلها ونبحث عن اثنين إضافيين.. إنها رائعة ستعجبكم جدًا.

فقال "أكرم" بجفاء:

- بالتأكيد هي رائعة، لأنها أكلة فلسطينية.

تجاهلَت تعليقه وسألَت:

- أي أحد؟

فرفض "أكرم"، ووافق "عمر"، فصفّقت الشابة فرحًا وهي تنظر لي قائلة:

- يتبقى واحد.. لا تخذلنا نحن الثلاثة.. ستعجبك جدًا.

لم نرِد التوغّل إلى هذا الحد.. ولم أرِد أيضًا إبداء العدوانية دون دافع أو سبب واضح. ما في القلب في القلب، لكن لو باح كل البشر بما في داخلهم ببساطة هكذا لفسدت الأرض. بين هذا وذاك لم يكن لديّ مانع، أردت فقط أن أسأل عن شكل التقديم، وهل سيجبرنا هذا على الجلوس معًا نأكل من صينية واحدة! كان هذا كثيرًا عليّ أعتقد.. وكأنما قرأَت أفكاري فقالت من تلقائها:

- يغرفونها في أطباق منفصلة.. سيجيئك طبقك منفصلاً إلى مكانك. كن رابعنا.. هيا قلها!

- موافق.

رفعت ذراعيها بالكامل للسماء وأطلقت صيحة فرح عالية، واستدارت وانطلقت في قفزات متتالية رأسًا على عقب في شكل

عجلـة كلاعبـات الجمبـاز، فنـثرت الرمـال مـن قفزتهـا الأولى في وجهـي ووجـه "أكـرم" الـذي أطلـق سـبة غليظـة بالعربيـة، نظـر لنا عـلى أثرهـا بعـض الشـباب المجاوريـن. يبـدو أن السـباب المـصري لا يعـرف حـدودًا جغرافيـة أو لغويـة. ثـم رفـع أحدهـم رأسـه أكـثر لتتلاقـى أعيننـا، وصـاح فينـا بالعبريـة:

- بِن زوناه!

نظْرتـه وملامـح وجهـه أغنيـاني عـن محاولـة فهـم أن هـذا سـباب، موجَّـه لنـا في أعيننـا، لكنـه تطـوع بقتـل أي شـك لدينـا، وقـال بعربيـة واضحـة:

- يعني.. يا ابن الزانية!

-٢٣-

ينطلق "حازم" بطائرته والحماس يملؤه، وكل ما يعرفه فعليًا عن ثغرة الدفرسوار أنها تلك المنطقة الواقعة على يسار الجيش الثالث ويمين الجيش الثاني.. وأن مثل تلك النقاط تكون هي الأضعف دائمًا في أي جيوش تخوض أي حرب.. وأن من كشف وجود تلك الثغرة هي طائرة استطلاع أمريكية وقامت بنقل المعلومة فورًا للإسرائيليين.

يعرف "حازم" فقط أن الإسرائيليين عبروا وحاصروا الجيش الثالث، أو للدقة، قطعوا عنه أي إمدادات.. يعرف أنه كان من الممكن تصفية هؤلاء الذين عبروا، ويعرف أن ثمة خلافًا تاريخيًا نشب بين العظيمين أنور السادات وسعد الدين الشاذلي بهذا الشأن.. ويعرف أن أقصى غرض لتلك العملية الانتحارية كان فقط تحسين شروط التفاوض وليّ ذراع المصريين الزاحفين تطهيرًا في سيناء.

لكن ثمة أشياء لم يكن يعرفها "حازم".

لم يعرف "حازم" أن خطة العبور تلك المسماة بـ"القلب الشجاع" كانت موضوعة سلفًا من "شارون" نفسه.. أولئك

الذين ملؤوا الدنيا ضجيجًا عن استحالة تحطيم أو عبور خط بارليف كانوا مؤمنين عمليًا بقدرة المصريين على عبوره، لدرجة أنهم جعلوا ساتر بارليف الترابي سُمكه أقل بكثير -عن عمد- في تلك المنطقة.. وقاموا بتجهيز الخطة البديلة.. بل قاموا بوضع علامات (حجارة حمراء) تمهيدًا للتنفيذ الفعلي في اليوم الموعود.. فقط أكّدت لهم الطائرة الأمريكية أن الطريق مفتوح بالفعل.

لم يعرف "حازم" أنه على الرغم من كل هذا.. فإن اتخاذ قرار تنفيذ تلك الخطة قوبل ببلبلة وتردد ورعب أشداء.. وكان أشد المؤيدين لتنفيذها "شارون" بالطبع، الذي استمات من أجل دفع قرار قيادته لقبول تنفيذ "القلب الشجاع".. وسافر الجنرال "حاييم بارليف" بطائرة هليكوبتر، صاحب الحصن المنيع الذي لا يُقهَر، إلى "موشى ديان" في القيادة العليا، ليقنعه ويحصل على تصديق مختوم للسماح لهم بعبور الخط إلى الغرب، الخط الذي تم عبوره بالفعل شرقًا من المصريين.

لم يعرف "حازم" تفاصيل مهولة كثيرة، منها أن العبور نفسه كان قد تم جزئيًا قبل أن يكتمل.. وأن "شارون" عبر بالفعل بما يزيد عن خمسمائة دبابة وعدة فرق مظلات كانت مرتكزة أمام ممر متلا قرب نِخِل.. ولتشجيع قيادته على المضيّ قدمًا، أرسل لهم رسالته التاريخية:

- نحن الآن في إفريقيا.

لكن لم تكن تلك القوة كافية، ولم يكن عبور المزيد من

الإسرائيليين مطَمئِنًا كذلك.. فقامت أهم معركة تخص هذا الشأن.. تلك المسماة بالمزرعة الصينية.

كانت المزرعة الصينية هي أقصى نقطة تخص الجيش الثاني المصري من جهة اليمين، وكان يتوجب إبادتها لتوسعة الممر الإسرائيلي للعبور الأضخم، من معدات وماكينات ودبابات ومشاة، يكفل عبورهم جميعًا تطوير الحرب لصالح الإسرائيليين، ونقلها إلى أبعاد أخرى تمامًا.

نقطة مصيرية في التاريخ هذه المعركة.

رمى الإسرائيليون بما يملكون في تلك المعركة بسخاء وبذخ شديدين.. تقدموا نحوها بكل التجهيزات الممكنة وليس في رؤوسهم سوى هدف وحيد، إبادة تلك النقطة الحصينة وإزالتها من الأرض.

حبست القيادة الإسرائيلية أنفاسها ووقفت على أطراف أصابعها، وبدأ بعض القادة في حصر وتجهيز الأعداد الأضخم من المعدات والجنود، للدفع بهم أجمعين عبر تلك الثغرة، فور إبادة المزرعة الصينية.

وبدأ الهجوم الإسرائيلي بلا هوادة ولا جس نبض.. كانت الأوامر مغلفة بمفهوم -وهو صحيح- أنها معركة المصير كله.. بدأ الضرب في مساء الخامس عشر من أكتوبر، ولم يتوقف إلا قليلاً عند بزوغ فجر السادس عشر من أكتوبر.. أربع عشرة ساعة من القصف والضرب ومحاولات التقدم.. وباءت جميع

هجمات الإسرائيليين بالفشل الذريع.. وكان هذا بعضًا مما قاله فيما بعد العقيد "آمنون" قائد الهجوم على المزرعة الصينية:

ما من شبر لم يتم قصفه بعنف أو إلقاء قنبلة أو رصاصة عليه.. ولم ينسحب المصريون، للدرجة التي ظننت معها أنهم مربوطون بسلاسل.. وتعرضنا نحن لشبه إبادة.. ثم صعدت بعد الفجر إلى تبة مرتفعة تشرف على أرض المعركة، فوقعت عيناي على منظر مفزع.. كانت الصحراء مغطاة أمامي بأعداد كبيرة من الدبابات والمركبات والمدافع والناقلات المحترقة والمشتعلة، وكذا عشرات من مركبات القيادة وورش الصيانة المتنقلة ومنصات إطلاق الصواريخ.. وكانت أشلاء الجنود الإسرائيليين متناثرة هنا وهناك ولا يفصل بينها وبين المواقع المصرية سوى أمتار قليلة.

ونقل مراسل صحفي أمريكي: في قطعة صغيرة من الأرض لا تزيد عن بضعة آلاف من الأمتار، وجدت الكثير من الدبابات الإسرائيلية محترقة تمامًا.. والدبابات والمركبات التي أصيبت بصورة أقل تم سحبها بعيدًا عن المعركة لإصلاحها.. وفي مكان واحد وجدت دبابة إسرائيلية ودبابة مصرية محطمتين ولا يفصل بين مدفعيهما سوى بضعة أمتار.

لم يعلم "حازم" أن من ظل حيًا من الإسرائيليين في تلك المعركة قضى ساعات في الظلام نائمًا على بطنه دافنًا رأسه في الرمال يحاول أن يحفر الأرض بأظافره ليصنع خندقًا يواريه،

ومـن يتجـرأ ويرفـع رأسـه كان الرصـاص المـصري يخترقـه ويلاقـي حتفـه في ثـوانٍ.

وعندمـا جـاءت التعزيـزات الإسرائيليـة لتحريـر العالقـين لم يسـتطيعوا تحديـد أماكـن اختبائهـم، فقـام الجنـود أنفسـهم بتفجير قنبلـة دخـان أحمـر للإشـارة عـن أماكنهـم.. ففتـح المصريـون بوابـات جهنـم مـن جديـد عـلى تلـك الأماكـن، لتسـتمر الإبـادة التـي أصابـت قائـد تلـك الفرقـة -حسـب كلام "مـوشى ديـان"- باكتئـاب شـديد، وهـو مـن لم يكـن لديـه أبـدًا أي شـعور.

لم يعلـم "حـازم" أن بعـد انتقـال تقاريـر الفشـل الإسرائيـلي الذريـع في تلـك المهمـة إلى مراكـز القيـادة، أصـدر "مـوشى ديـان" قـرارًا بإلغـاء الخطـة وانسـحاب فـوري مـن الضفـة الغربيـة لأولئـك الذيـن عـبروا بالفعـل.. وقـال بالنـص: لقـد حاولنـا ومحاولاتنـا ذهبـت أدراج الريـاح.. أقـترح إلغـاء فكـرة العبـور تمامًـا، إذ أن المصريـين سـيذبحون قواتنـا عـلى الشـاطئ الآخـر.

لكـن جـنرالاً آخـر يُدعـى "جونـين" ردّ قائـلاً بالنـص: لـو كنـا نعلـم مقدمًـا أن كل هـذا سـيحدث مـا كنـا بدأنـا عمليـة العبـور.. أمـا الآن ومـا دمنـا قـد عبرنـا فلنسـتمر حتـى النهايـة المريـرة.

وأيّـده في هـذا الطَـرح الجـنرال "بارليـف"، ودبّ خـلاف كبـير بـين "جولـدا مائـير" وجميـع الـوزراء.. انتهـى بقـرار الاسـتمرار في طريـق الهـلاك.. وتـم تكليـف العقيـد العنيـد "آمنـون" بشـن الهجمـة الرابعـة عـلى المزرعـة الصينيـة مـن جديـد، لعـل وعـسى

ينجح تلك المرة ويبيدها ويعطي عملية العبور قبلة الحياة، وطوّر بالفعل خطة هجومه ببراعة متعلمًا من دروس الهجمات الثلاثة الفاشلة السابقة.. ولكنه من جديد يلعق نعل الهزيمة، وتصبح معداته شحيحة العدد مهترئة الحال.. فيعود الجميع للخطة الأصلية شبه المعدومة الأمل، ويقررون العبور بالقوات المتاحة، للالتحام بقوات "شارون" في الضفة الغربية.

لا يعلم "حازم" كل ذلك.. ولا يعلم أن مجرد عبور تلك القوات الإضافية المتاحة والتحامهم بالقوات المتمركزة غربًا يكفي بالكاد لترسيخ قدم إسرائيلية وحيدة، تسمح لهم بتمرير بعض من الهواء عبر حناجرهم ليهز أحبالهم الصوتية قليلاً، فيتفوهون ببعض الكلمات أمام شعبهم والعالم.

لا يعلم "حازم" وهو ينحرف بطائرته يمينًا متجهًا صوب تلك الثغرة أن القوات الإضافية بدأت حالاً بالعبور.

يرى "حازم" الجسر من قمرة قيادته.. والدبابات البطيئة ترتقيه واحدة تلو الأخرى.

يرفع "حازم" ثلاثة أزرار متتالية.. وينطلق صوت متقطع علامة جاهزية الصاروخ للانطلاق.

نتقافز نحن ونشد شعورنا ونصرخ فيه:

- دعهم يعبرون يا "حازم".. سننتصر، سننتصر وأنت تعلم.. دعهم يعبرون!

لكنه لا يسمعنا.

يوجّه "حازم" مؤشر التصويب نحو منتصف الكوبري، الذي وصلته أولى الدبابات بالفعل.

يتذكر بعضنا إحدى مغامرات "نور" وفريقه في "ملف المستقبل"، عندما انتهت إحدى مهماتهم على الحدود المصرية الشرقية يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧، ورأوا رأي العين الطائرات الإسرائيلية منطلقة لتذيق المصريين نكسة سوداء.. فرفع أعضاء الفريق أسلحتهم المتطورة للقضاء على تلك الطائرات، فأوقفهم "نور" وأمرهم بترك التاريخ يأخذ مجراه.. معددًا المكاسب اللاحقة التي جنيناها بعد تجاوز آثار تلك النكسة.

نتذكر هذا ويقنعنا المنطق.

- دعهم يا "حازم".

بينما يضغط هو زر الإطلاق.

وينطلق الصاروخ كسهم ناري عملاق.

ويصيب الصاروخ هدفه بدقة.. وتنقطع أوصال الإمدادات للألوية الثلاثة وفرق المظلات و"شارون".

يكبّر "حازم" فرحًا.. ويدور بطائرته بعد أن ترك ذلك الموقع وتوغّل قليلاً فوق سيناء، ليعود لهم من جديد.. ليذيقهم صاروخًا آخر.

يقترب الآن من قناة السويس متجهًا صوب "شارون" في الغرب.

يرفع أزراره الثلاثة من جديد.

يَجهَز الصاروخ الجديد.

يوجّه "حازم" مؤشر التصويب نحو ذلك التكتّل الإسرائيلي.

وقبل أن يضغط زر الإطلاق، يصيب ذيل طائرته صاروخ دفاع جوي إسرائيلي، فتتحول طائرته إلى صاروخ معطوب منطلق بالقصور الذاتي.. يجرّ وراءه ذيلاً من الدخان الأسود.. ويهوي إلى الأرض بتسارع ٩,٨١ متر في الثانية المربعة، المتعارف عليه.

ترتج الطائرة بعنف كأن شياطين جهنم تتقافز عليها.. تهبط جميع المؤشرات وهي ترتعش بجنون.. يسمع "حازم" عبر خوذته هدير المحركات المعطوبة يتصاعد.. بينما اكتست شاشته بالضوء الأحمر مطلقة بدون توقف سرينة إنذار متقطع.. يشم "حازم" عبر قناع الأوكسجين روائح دخان كثيف ومعادن تحترق.. يدفع ذراع القوة لأقصى عزم انطلاق.. ويجذب بكل ما أوتي من طاقة ذراع رفع الطائرة لأعلى، ولا تستجب له الطائرة التي أمالت مقدمتها للأمام لتهوي إلى الأرض كالرمح بزاوية حادة.. ويرى "حازم" المزارع والمنازل تتشكّل وتقترب بسرعة جنونية.

وبعد أن صارت تلك القوات الإسرائيلية معزولة، أصبحت

هالكة لا محالة.. لكن "شارون" لا يشعر بأي قلق أو توتر طبقًا لهذا التحديث في الخطة.. بل يبتسم ويشعر بحماس وجذل شديدين.. ويستدير بنفسه موليًا قناة السويس ظهره.. ويبعث برسالة لا سلكية لقيادته:

- من مركز القيادة في إفريقيا.. تم تدمير جسر العبور.. لا مزيد من القوات يمكن أن تنضم إلينا.. هذه رسالتنا الأخيرة.. سنتجه فورًا صوب القاهرة.

ويستلّ الجميع أسلحتهم ودباباتهم.. وينطلقون إلى معركتهم الأخيرة.

-٢٤-

بعد أن أطلق ذلك الشاب سبَّته علينا، متبوعة بترجمة عربية، وقبل أن أستوعب الموقف أو أقرر رد الفعل، كان "أكرم" قد تجاهل حقيقة أنه هو من بدأ بالسباب، وانطلق بالفعل كطوربيد ألماني فرز أوّل، مطيحًا في انطلاقته المهولة بالطبلية، وما عليها من أكواب، واثنين من أصدقاء ذلك الذي سبَّنا، قبل أن يحطّ على ذلك التعيس كجلمود صخر.. في ثانية واحدة تكهرب الجو كله، وبطريقة أو بأخرى استخلص أبناء العم زميلهم من "أكرم" قبل أن يوسعه المزيد من اللكمات الأصيلة.. الغريب أن سلوكهم مشابه لسلوكنا في مثل هذه المواقف بشكل ما.. تعلم عندما يتورط ابن شخص مسكين في مشكلة مع شخص مهم أو يبدو مهمًا، فينهال الأب عديم "الضهر" على ابنه بالتوبيخ الشديد وأحيانًا بالصفعات دون أن يعرف تمام أبعاد المشكلة، وأحيانًا دون أن يكون ابنه مخطئًا بالأساس.. قد يتطور الأمر كذلك إلى "بوس إيد سيدك يا ابن الـ...". أبناء العم هنا ليسوا مساكين، بل هم الأكثرية في مفارقة صنعها القدر.. لكنهم اتبعوا نفس السلوك لتهدئة الأجواء.. فبمجرد إبعادهم للطرفين الملتحمين، كان التعنيف والتقريع بعبرية غليظة ينهالان على

صديقهم مطلِق السباب.. الذي لم يهدأ بدوره، فأطلق سبَّتين عربيتين أخريين بصراخ هادر.. لا يريد أن يصمت ذلك اللعين.. فأرخينا قبضتينا أنا و"عمر" الممسكتين بـ"أكرم"، وطار نحو ذلك التكتل البشري بنفس طريقة "أخيل" في فيلم "تروي" التي طعَن على أثرها "بواجرياس".. بنفس الطريقة انقضّ "أكرم" على ذلك الشخص لكن بيد عارية، وأذاقه صفعة دوّى صوتها في سيناء كلها.

أسقطت تلك الصفعة الشاب أرضًا، وأسقطت قناع التهدئة الذي لبسه معظمهم قبلها.. تحوّل الموقف إلى حد كبير.. تطاير الشرر من أعين الجميع وبدوا جميعًا في حالة تأهب قصوى، في انتظار من يطلق إشارة البدء منهم.. فنهض مطلِق السباب المصفوع المنبطح أرضًا، الذي لا ينفك عن إضافة كُنية جديدة في لقبه بعد كل دقيقة تمرّ.. نهض بعد أن لملم نفسه وكان هو إشارة البدء بالفعل، فالتقط عودًا ليلعب دورًا آخر غير الموسيقى ورفعه عاليًا، ليهوي به على رأس "أكرم" الذي تفاداه في اللحظة الأخيرة، وهمّ الجميع بالاشتباك فانقضضنا أنا و"عمر" مع "أكرم" دون أدنى حسابات لموازين القوى العددية.. نحن من جاورناهم بالكاد على مضض منذ البداية.. صرنا جميعًا من جديد كتلة بشرية ملتحمة لا تنوي أن تنبسط قريبًا.. كان الهجوم بكل ما في المتناول من أيادٍ وأذرع وأقدام ورؤوس وأسنان، تنطلق في أي مكان دون تمييز.. من يسقط يقع عليه الآخرين عمدًا أو عفوًا.. كانت "معجنة" سريعة لم يوقفها

إلا صوت رصاصة أُطلقت في الهواء، رجّت المكان رجًّا وأوقفت المشهد، كأن أحدهم ضغط زر التوقيف.. ونظرنا جميعًا نحو مصدر الصوت، لنجده الضابط الشاب الجالس جوار المدرعة منزوعة الإطارات.. رافعًا مسدسه في الهواء، أطلق رصاصتين أخريين وهو محاط بستة جنود مسلحين في حالة استعداد، وهو يصيح بالإنجليزية أن يبتعد الجميع بالرجوع خطوات للخلف.

تم فصل القوات البدائية المتلاحمة ببطء.. وأعين أبناء العم مليئة بالترقب والتوجس من الضابط الشاب، لا يدرون هل سيحلّ بالحكمة أم ثمة جديد تخبئه الأمور! ثم ظهر لأول مرة مالك المكان، بدوي كبير في السن جاء مهرولاً يلهث بعد اتصالات من العاملين.

كان الضابط صارمًا بشدة، ولم يستجب بسهولة لصاحب المكان الذي طلب منه المغادرة بمجرد مجيئه، مؤكدًا أن كل شيء على ما يرام.. تعامل معه الضابط باحترام وتقدير لكن دون أن يغادر فعلاً، وتحدث معنا بانفراد وطلب أن نغادر راس شيطان.. قد يكون هذا الاقتراح هو الأسلم على ما يبدو، لكن ضع نفسك مكاننا.. أي مغادرة تلك التي ستقوم بها؟

رفضنا رفضًا ثلاثيًا قاطعًا.. وإن تعكّرت الأجواء بلا أمل في أن تصفو من جديد في المكان الذي صار مشحونًا.. بدا الرضا في نظرات الضابط وطمأننا أن وحدته وحدة ثابتة لا تغادر هذا

المكان، وأنه هو أو زميل له بالإضافة إلى الجنود موجودون على بعد ثلاثمائة متر، عند البوابة.. لكنه طلب أن نتحلّى فقط بضبط النفس وألا نبدأ أي احتكاكات، وأن نظل منتبهين كذلك لا نغفل.

قبل أن يغادر الضابط، أتتنا مجموعة من خمسة أشخاص منهم، مستخدمين جميع مفردات لغة الجسد الممكنة من إظهار الكفين مفتوحتين أمامًا إلى التحرك البطيء إلى رفع إبهام أحدهم للأعلى إلى ابتسامات حذِرَة، لإرسال رسالة "لا حرب" أو "لا ضرب" أثناء مجيئهم.. كانوا عقلاء للغاية، وقبل أن تبدأ التهدئة فضّل الضابط ألا يكون موجودًا أثناءها لاعتبارات كثيرة ومنطقية.. فغادر المكان بالفعل وبدأت مساعي التهدئة برعاية البدوي صاحب المكان الذي انضم إلينا، وتحدث الجميع كثيرًا بالإنجليزية عن عدم جدوى التنقيب عن المخطئ الحقيقي، وعن حساسية الاحتفاظ بتوترات، وعن ضرورة الترفّع الفعلي عن أي نية اشتباكات، حالية أو مستقبلية.

للأمانة.. كانوا ودودين وعقلانيين للغاية، لكن -ولا تتهمنا أرجوك بـ"الأفورة" أو "الحسوكة"- لكن من يتحدث في تلك الأحاديث وبتلك اللهجة يُفترض أن يكون هو صاحب الأرض الفعلي.. هل زرت شخصًا أبدًا في بيته وقلت كلامًا من نوعية "البيت بيتك" و"خد راحتك" وهذه الأمور؟ حتى لو كان هو وحيدًا وأنت معك عشرة من أقاربك؟ فقمنا بالرد بألفاظ منتقاة بعناية لاستلام زمام الأمور من دون هدم لتلك المساعي

الضروريـة وقتهـا.

ببـطء، راقـت الأمـور إلى حـد كبـير.. وازداد هـؤلاء الخمسـة عـددًا وانطلقـوا مـن جديـد في لعـب الموسـيقى، وتورّطنا في عـدم وجود أي إمكانيـة للتملّـص مـن هـذا الوضـع، الـضروري الإبقـاء عليـه حتـى انتهـاء مـدة الرحلـة الموشـكة عـلى الانتهـاء بعـد يومـين بالفعـل.

حـلّ الظـلام، فأشـعل العاملـون كعادتهـم اليوميـة إضاءتهـم المكوّنـة مـن أنصـاف زجاجـات بلاسـتيكية ممتلئـة لمنتصفهـا برمـل مغـروس بـه شـمعة، تضفـي وسـط الظـلام تأثـيرات جميلـة للغايـة.

بعـد سـاعة عـلى هـذا الوضـع ظهـرت الشـابة عاشـقة الجمبـاز، ومعهـا سـيدة في منتصـف الثلاثينيـات ويتبعهـما عامـل يحمـل صينيـة كبـيرة، فأشـارت لـه بمـرح كبـير عـلى الطبليـة الواقعـة أمامنـا وقالـت:

- هنا.. ضع الطعام هنا.. سنأكل مع أصدقائنا المصريين.

وهكـذا.. بعـد أن كنـا عـلى مشـارف سـيناء لا نـدري إلى أيـن سـنذهب، صرنـا جالسـين وسـط أكـثر مـن عـشرة إسرائيليـين عـلى أضـواء الشـموع وعـلى أنغـام الموسـيقى نتبـادل حـوارات باسـمة، ونـأكل "مقلوبـة" معًـا!

-٢٥-

الجيش المصري بأكمله في سيناء.

و"شارون" وكتلة عسكرية كبيرة في غرب السويس.

و"حازم" في طائرة تترنح وتقترب من الأرض.

وصدر القاهرة مفتوح تمامًا.

يفقد "شارون" أي أمل في النجاة بمن معه.. فيختار التقدم إلى القاهرة، من باب (عليّ وعلى أعدائي)، ذلك العاشق للدماء المدنية.. وأيضًا من باب توفير فرصة أخيرة لقيادته السياسية لعمل شيء ما استغلالاً لتقدمه الصارخ في العمق المصري، بالإضافة إلى رفع معنويات جنود جيشه في جبهة القتال في سيناء.

يمد "حازم" يديه أسفل مقعده، ويخشّب عضلات رقبته تجهيزًا للانطلاق القادم.. يتحسس كالمحموم إلى أن يجد كلتا الذراعين المطلوبتين.. فيمسكهما ويجذبهما بعنف.. وفي جزء من جزء من الثانية يُفتح الزجاج العلوي وتنفجر قنبلة في أسطوانة معدنية صلبة أسفل كرسيه، فتتحول إلى صاروخ يقذفه وكرسيه

إلى السماء.. قبل أن تتوقف رحلة صعوده إلى أعلى لنصف ثانية قبل أن تعمل قوانين الجاذبية الأرضية من جديد.. تُفتح مظلته ولا تخفف الكثير من سرعة هبوطه.. تُفتح على ارتفاع ليس بكافٍ تمامًا.

لم تعمل المظلة بشكل جيد، فكان اصطدامه بالأرض عنيفًا تلك المرة، للدرجة التي أفقدته الوعي لدقائق، يفيق بعدها مذعورًا أنّ "شارون" ورفاقه يتوغلون غربًا بسبب فقدانهم الأمل.. لا يتذكّر من قائل مقولة "اترك لعدوك منفذ هروب.. لا تحاصره بالكامل" لكنه يفهمها الآن ويقتنع بها.. متأخرًا.

ينزف "حازم".. يتصبب عرقًا.. ويكسو الغبار وجهه وملابسه الممزقة. يتحامل ويحاول النهوض.. يعمي عينيه وهج قرص الشمس فيقع ثانية.. منهَك جدًا.. يدفن رأسه في رمال الصحراء الحارقة، ويضرب الأرض بقبضتيه غير مصدق أن ما فعله وملأه سعادة وفخرًا منذ قليل، يتحول الآن إلى أبشع كابوس ممكن.. كابوس مرئي ومسموع وملموس، كابوس يتحقق ويملؤه عارًا يدفعه دفعًا للانتحار.

يتعالى صوت بكائه ونحيبه ندمًا وقلقًا مما هو آت، إلى أن سمعهم قادمين.. ماكيناتهم وجنازير دباباتهم ومدرعاتهم تقترب ببطء.. وضجيجها يعلو شيئًا فشيئًا.

- "اللعنة! بتلك السرعة؟!".

يرفع رأسه فتمرق رصاصة بصفيرها الحاد جوار أذنه. يلتصق

بـالأرض ويزحـف. يقتربـون وتمـرق رصاصتـان أخريـان فـوق رأسـه. هـم أسرع منـه كثـيرًا. يملـؤه النـدم لا الخـوف، عـلى قومـه لا عـلى نفسـه. يرتفـع صـوت ضجيجهـم بشـدة فيصـم أذنيـه. يتحامـل وينهـض ويجـر سـاقه المصابـة، وتتطايـر مـن حولـه رصاصاتهـم الغزيـرة. يجـري كالأعـرج وهـو ينـزف والمسـافة بينـه وبينهـم تقـترب بشـدة.. إلى أن أصبـح في وسـطهم تمامًـا، لكنهـم يمضـون في طريقهـم كأنـه سراب أو هبـاء منثـور.. ليـدرك أنهـم لا يرونـه.. هـم فقـط يطلقـون نيرانهـم عـلى سـكان تلـك القريـة القريبـة.

فيدرك أن دوره في تلك الجولة قد انتهى.

وأنه فقط سيشاهد نتيجة فعلته الحمقاء، التي ظنها عظيمة.

وأنهـم متجهـون كالشـؤم، بذلـك الجيـش وتلـك النيـة السـوداء، إلى قلـب وطنـه.. إلى القاهـرة.

لا يصـدق أن هـؤلاء الجنـود بزيّهـم ذي اللـون الزيتـي ورمـزه المقبـض للقلـب، تطـأ أحذيتهـم وماكيناتهـم طريـق السـويس - القاهـرة بهـذا العمـق.. بسـببه هـو وصاروخـه اللعـين.

لكـن "حـازم" الفاقـد لتمييـز الاتجاهـات لا يعلـم أن الحشـد العسـكري ليـس متجهًـا إلى القاهـرة، حتـى الآن.. بـل هـم في طريقهـم إلى مطـار فايـد العسـكري. حـدث أن راقـت فكـرة التوغـل الانتحاريـة بشـدة للقيـادة الإسرائيليـة.. دفعهـم "شـارون" عمليًـا للتفكـير الفعـلي في الضربـة القاضيـة. في اجتـماع محمـوم للقيـادة العليـا قـرر الجميـع فتـح خـط إمـدادات جـوي لدعـم تلـك الكتلـة

الانتحارية المتوجهة للعمق المصري، مهما كانت الخسائر المحتملة. أرسلوا إلى "شارون" أمرًا بالاستيلاء على أقرب مطار من ناحية القناة، قرب الثغرة شبه الخالية من الدفاع الجوي.. وهو ما حدث بالفعل في ضربة مباغتة غير متوقعة.

كالمسعورين أطلقوا طائرات المدد لنقل ثلاثة ألوية إضافية، مسلّحة بالمتبقي لجعل هذه الكتلة جيشًا صغيرًا مكتمل الأركان، آملين في وصول لواء وحيد من الثلاثة على الأقل للالتحام بقوات "شارون"، فتم بنجاح نقل لوائين كاملين بعتادهم.. وتم صف القوات وفتح الخرائط والاتجاه إلى القاهرة. فيتمدد الورم السرطاني في الجسد المصري.

بعد أن تم رصد قوام تلك القوة تم سحب جميع فرق وكتائب وألوية المنطقة المركزية للجيش المصري، وإعادة التمركز في كتلة واحدة في القاهرة، تجنبًا لتعرضها للسحق واحدة تلو الأخرى فرادى.

ينتشر الخبر فعليًا في جميع أنحاء الوطن.. ودون ترتيبات أو انتظار توجيهات هبّ المواطنون للتصدّي لذلك الهجوم، بأي طريقة ومهما كانت التضحيات.

وكأن يوم الحشر قد قام في أنحاء مصر بأسْرها.. توقفت الحياة ونزل الجميع.. كلمة "الجميع" هنا تعني الجميع، شبابًا ورجالاً وشيوخًا وسيدات متجهين مهرولين لملاقاة هذا العدو، الذي ما كانوا يتوقعون مواجهته وجهًا لوجه هكذا.. استقل

الجميع سيارات وحافلات.. لا أحد يسأل كيف أو إلى أين أو ماذا بعد. إسرائيل هنا.. وجيش مصر هناك.. وصدر القاهرة مفتوح.

تبدأ المواجهة المحسومة على أطراف القاهرة بمأساة صغيرة.. يترجّل عشرة آلاف من الأوتوبيسات والسيارات أمام الإسرائيليين.

حينما يعميك الغضب والغيرة على وطنك عن أي صواب وأي حسابات عقل.

ويجدون أنفسهم عُزّل في مواجهة جيش مسلح خسيس.. لم تدرِ تلك الجموع المدنية يقينًا ماذا هم بفاعلين.. فقط مهرولين مهللين مكبرين صوب العدو، وبعضهم يلتقط أحجارًا ليقذفهم بها!

دون أدنى تردد يفتح الجيش الإسرائيلي نيرانه ويلقي قنابله.. ولم يتراجع شخص واحد، ولم يفسح الطريق.

يروق الأمر للجنود الإسرائيليين فيبدؤون في الترجّل من المدرعات، ليتسنى لأكبر عدد منهم إطلاق نيرانه على أكبر عدد من المصريين.

وتتكوم الأجساد ويصطبغ الأسفلت بدماء غزيرة.. ويبادوا جميعًا.

عشرة آلاف جثة مصرية.. على مدخل القاهرة.

وتمرّ الدبابات فوق أجسادهم.. فعلها الإسرائيليون من قبل مع أسرى ٦٧.. ويكررونها الآن مع مدنيين.

ويستمر الجيش الإسرائيلي في توغله.

وتصل تلك الأخبار المشؤومة للجيش المصري في جبهة القتال.. وهم في علْم ويقين عن استحالة العودة لإنقاذ أي شيء.. فيجنّ جنونهم إلى درجة فقدان القدرة على التفكير فيما هو دون سحق العدو أينما يُرى.. وجاءت الأوامر الواضحة، التقدم للأبد.. التقدم حتى الموت، لآخر واحد.. منا أو منهم.

تدبّ الحياة من خلالهم في رصاصاتهم وقذائفهم وقنابلهم.. صار التوحّش هو العنوان والسحق هو سيد الموقف.

يتم تفكيك معدات الدفاع الجوي ونقلها لخطوط أمامية أبعد بكثير، وإعادة نصبها لتأمين زحف القوات البرية.. وكانت الصواريخ مطيعة للغاية في اصطياد الكثير من طائرات العدو.

وتصدر الأوامر لجميع قطع الفرقاطات البحرية المصرية بالاقتراب لأقصى مدى ممكن، وقصف القواعد الإسرائيلية في شمال سيناء بصواريخ بحر/ أرض، لتمهيد الأرض للجيش البري.

ولم يقف في وجه القوات البرية المصرية جندي أو معدّة عسكرية أو كتيبة من العدو إلا وأبيدت عن بكرة أبيها.

لا يوجد أسير إسرائيلي واحد.. من يظل حيًا بعد إسقاط وحدته يتم ذبحه.. ويتم فصل رؤوس جميع القتلى والاحتفاظ

بهـا.. والاسـتمرار في التقـدم.

كان جمـع رؤوس القتـلى هـو إحيـاء لتكنيـك قديـم قِـدَم الغـزوات.. حيـث قـام الضبـاط والجنـود بتصنيـع منجنيـق بـأدوات بدائيـة، وقبـل الاشـتباك الفعـلي مـع أي وحـدة يتـم ملاقاتهـا كانـوا يقذفونهـم بـرؤوس زملائهـم ذوات الخـوذة الزيتيـة والنجمـة، والتي يتـدلى منهـا قطـع مـن لحمهـم وأوردتهـم المبتلـة بالـدم الطـازج.

فيرفع بعضهم الراية البيضاء.

"أي راية بيضاء تلك؟!".

ويسـتمر الكسـح دون هـوادة ودون رحمـة ودون أسرى.. مـن لم يفـر مـن الإسرائيليـين صـار كالدجاجـة الجاهـزة للذبـح مثـل سـابقيه.. وهـو مـا قـد حـدث فعـلاً.

وفي الجبهـة المدنيـة المصريـة يـزداد تقـدم الإسرائيليـين نحـو القاهـرة، فيجـدون بعـد كيلومتريـن مـن مجـزرة العـشرة آلاف مـدني، أرتـالاً مـن السـيارات والأوتوبيسـات مصفوفـة لتسـد الطريق أمامهـم.

لكن هيهات.

تسـتمر الدبابـات كـما هـي وتقـوم بسـحق السـيارات وجـرف الأوتوبيسـات كأنهـا علـب سرديـن فارغـة.. ليفشـل أيضًـا حائـط الصـد المعـدني في إيقـاف العـدو.

وبعد كيلومتر واحد كانت قد وصلت قوات الشرطة التي أدارت معركة رائعة، دمرت فيها سبع دبابات للعدو وقتلت العشرات، قبل أن يتفوق الجيش الإسرائيلي بفعل صواريخه المحمولة ويحطم آليات الشرطة المصرية ويقتل الجميع، بعد معركة ضارية استمرت ثلاث ساعات.

ويستمر الجيش المصري بغضب هادر في الزحف، وعينه تلك المرة على الما لا نهاية.

التقدم حتى موت آخر فرد.. منا أو منهم.

حينما يسلبك الغضب كل خلايا عقلك.

القيادتان المصرية والإسرائيلية يجنّ جنونهما معًا.. في أول معركة في التاريخ تدور بين جيشين موليان ظهريهما بعضهما لبعض.. صار اللعب على العواصم.. من تقع عاصمته أولاً يموت.

وأخيرًا يصل الجيش الإسرائيلي إلى القاهرة.. بداية الأرض الأكثر اكتظاظًا بالسكان.

المصريون بالآلاف في الشوارع لا ينوون الهروب.. مسلحون بأسلحة خفيفة لم تنفعهم شيئًا.

مدرعات شرطة تظهر كل حين لتبلى بلاءً حسنًا، قبل أن يتم اصطيادها وتفجيرها.

والجيش المصري يتقدم هناك في سيناء بدون توقف.. والإسرائيليون يفرون.

وفي القاهرة الإسرائيليون يتقدمون.. ويقتلون.

توقفت الحياة ووقف العالم كله.. وكتم أنفاسه.. ولم يرمش أي جفن.. توقفت جميع ساعات الأرض عن الدوران.

اتصالات تنهمر وقرارات تتخذ.. ولا حياة لمن تنادي.

أغضبت الجريمة الإسرائيلية التي تدور العربَ جميعًا، ويعطي ملك السعودية أمره بالانطلاق للسلاح الجوي السعودي بأكمله.

لم يعد في قوس الصبر منزع.

مستفيدون من دروس الماضي القريب.. وبنفس تكنيك الإسرائيليين في ٦٧.. انطلقت الطائرات الحربية السعودية جميعها كالطير الأبابيل، لتدك المطارات الحربية الإسرائيلية وممرات إقلاع طائراتها.

وبسبب كثافة الطائرات المهاجمة.. تم اصطياد ربع الطائرات السعودية فقط من الدفاع الجوي الإسرائيلي.. سقط من سقط، واستشهد من استشهد.. وعادت باقي الطائرات إلى قواعدها سالمة غانمة مدمِّرة شرايين السلاح الجوي الإسرائيلي.

تجد الطائرات الإسرائيلية المحلقة في الجو نفسها بدون أي مجال عودة للأرض.. فيقومون بضربتهم الأخيرة هم كذلك..

يتجهون جميعهم إلى بورسعيد ودمياط ويفرغون كامل تسليحهم في الأحياء السكنية.. فعلوها من قبل في مدرسة أطفال بحر البقر وفي مصنع أبي زعبل.. لكنها تلك المرة كانت أكثر سخاء وقذارة.. يفرغون تسليحهم كاملاً في مدنيين.. قبل أن ينحرفوا نحو البحر المتوسط ليقفز الطيارون بالباراشوتات في عرض البحر.. الاختيار الأكثر رحمة عليهم.

يتقدم الإسرائيليون أكثر في القاهرة.. ولا يدير أي من المدنيين المصريين ظهره.. ويتلقون الرصاص ودانات المدافع.

ويلتحم الجيش العراقي مع الجيش السوري الذي يحرز تقدمًا رائعًا يربك الجيش الإسرائيلي كله.. ويحصل السوريون على سبق الدخول والتوغل في إسرائيل.. وفي لفتة أصابت الإسرائيليين أكملهم بالهلع، كل كيلومتر كان يتوغله الجيش السوري كان يُنصب عليه علم فلسطين.. ما أرسل رسالة مُزلزِلة عن تطوّر هدف الحرب وتصعيد غرضها إلى آفاق عظمى.

وتتحرك الفرقاطات البحرية المصرية شرقًا صوب تل أبيب، فتخرج جميع وحدات البحرية الإسرائيلية لصد اقترابها من الحد الذي يضع تل أبيب في مدى صواريخها.. وتدور أشرس معركة بحرية ممكنة، تحرز البحرية المصرية فيها انتصارات جيدة، لكن مع خسارة العديد من القطع، والأهم، تعرقل التقدم الذي لن يكون سهلاً ولا سريعًا.. فيقوم السلاح الجوي السعودي بأكمله بالإقلاع من جديد للمشاركة في الاشتباك،

ويذيـق القطـع البحريـة الإسرائيليـة نـيران وصواريـخ كالأمطـار، بـل وانقضّـت عـشرون طائـرة سـعودية عـلى الطريقـة اليابانيـة بعـد نفـاذ ذخيرتهـم في قلـب تلـك القطـع، لتحسـم الموقـف وتغـرق خط بارليـف البحـري، وينفتـح البحـر للبحريـة المصريـة لتتقـدم شرقًـا.

ويعلـن جيـش الجزائـر الحـرب عـلى قـوات الاحتـلال الإسرائيلية في القاهـرة، وتبـدأ طائـرات نقـل الجنـود والمعـدات في الإقـلاع صـوب القاهـرة، تذكـرة ذهـاب فقـط، حتـى تطهـير القاهـرة أو الشـهادة.

والآلاف من المدنيين المصريين يتساقطون كل ساعة.

والجيش البري المصري يقترب بشدة من حدود سيناء الشرقية.

والجيـش السـوري يتوغـل أكـثر في إسرائيـل، وينقسـم الجيـش الـبرّي الإسرائيـلي إلى جبهتـين تواجهـان زحفًـا ناريًـا لا يبقـي ولا يـذر.

صار التقدم المحموم هنا وهناك لعبًا على الضربة القاضية.

وهكذا دون دعوات.. أو مقدمات.. تدخل أمريكا الحرب.

-٢٦-

هل أكلت من قبل مع إسرائيليين؟

كان الوضع مقبضًا وغريبًا ومليئًا بالمشاعر المتناقضة.. تارة تستسلم لكونك تمارس معهم في نفس الزمان والمكان أقدم فعل قام به الإنسان لاستمراره على قيد الحياة.. تشعر بنفسك ترتقي فوق صغائر الأمور وتسب السياسة والجشع الإنساني اللذين يفسدان صفو تعارف القبائل وتلاقي الشعوب وتآلف الأرواح.. وتارة أخرى يتحدث هذا مع ذاك بالعبرية فتنتصب كل شعرة في جسدك بالفطرة، وتتساءل إن كنت تتقبل هذا التطبيع الفعلي رغم كل شيء.

المقلوبة نفسها كانت متناهية اللذة.. أجزمنا أنا و"عمر" أن الموضوع كان يستحق.. "أكرم" كان يأكل طبقًا بدويًا غريبًا اسمه بامية بيضاء.. هي بامية بدون صلصة ويجاورها بعض قطع اللحم، وقال هو فيها أشعارًا أيضًا.. والشابتان منهمكتان في سِلْم في التهام نصيبيهما من المقلوبة الرائعة.. وأبناء عم عديدون يشاركوننا الجلسة، بعضهم يأكل أشياء وبعضهم يدخن سجائر أو حشيشًا، وبعضهم يلعب موسيقى رائعة بصراحة..

وكانت أحاديثهم معًا تدور بالإنجليزية من باب الذوق لوجودنا، إلا ما ندر وكنت حينها أنقبض كما قلت.

بادرَت فتاة الجمباز بسؤالنا وسط الطعام بمرح:

- لم نعرف أسماءكم بعد؟

فدارت الإجابة واحدًا تلو الآخر يقول اسمه، إلى أن جاء دورها فقالت اسمها:

- ميرخاف.

فقال "عمر" بالعربية، والمقلوبة تملأ فمه:

- يا حلاوة!

لم يعلق عليه أحد، وقالت صديقتها إن اسمها "فيكي" والشاب الذي يليها "يوسف"، وقال الشاب الذي يليه اسمه:

- أفيف.

فعلّق "عمر" وهو يأكل:

- يا صلاة النبي!

وجاء الدور على "أكرم" ليقول اسمه، فقال بعدما ابتلع ملعقة أرز وباميه بيضاء:

- أدولف هتلر.

لم أهضم في حياتي الهتافات الحنجورية والشعارات الرنانة.. لم أستسغ مثل هذه الأشياء أبدًا.. كل ما أعرفه في هذا الشأن هو العمل الفعلي والنتائج النهائية.. أي شيء غير هذا هو "فشّ غل" من وجهة نظري.. تخيل أن شخصًا تكرهه ويكرهك يقوم ببناء صرح كبير، ويضح حجرًا فوق حجر يومًا بعد يوم، وأنت مكتفٍ بالوقوف تشاهده وتسبّه في طلعة كل صباح، وتسب أمه في نهاية كل يوم، بينما هو منهمك في بناء مبناه الذي سيلقي على رأسك أحجارًا من قمته حال اكتماله.. ماذا ستقول لأبنائك عندما يزورونك في المستشفى؟ إنك لم تسكت! بل أذقته من الهتافات أشعارًا؟! مذهل!

فما بالك ونحن في هذا الوضع الواقع بالكاد تحت السيطرة، فيقوم "أكرم" بـ"تلقيح الكلام" ويضرب أحد أهم الأوتار، ويعلن أمامهم بهذا الشكل عن إعجابه بهتلر؟!

انتبهت بشدة وتحفّزت، متوقعًا أن نارًا أخرى ستندلع حالاً.. لكن لم يحدث أي شيء.. فقط ساد الصمت لبرهة، عدا من هؤلاء الذين يلعبون الموسيقى، وإن صاروا يلعبون جملة موسيقية قصيرة واحدة لا تتغير.. وذلك الممسك بالطبلة صارت دقات إيقاعاته عليها خافتة للغاية.. ومن جديد يبدون هم بمظهر المتحضرين ونحن -بسبب "أكرم"- نبدو كالغوغاء.. لا داعٍ للتذاكي وتغيير الموضوع، ولكن الصمت أيضًا يوحي بموافقة ضمنية.. فقطع "عمر" حيرتي وسألهم بفم مليء:

- هل قتل "هتلر" منكم الكثير؟

لم يدر أحد منهم كيف يردّ، فقالت "ميرخاف" إن ذكريات هذه الأيام باقية ومؤلمة، لدرجة أن والديها قاطعا أخيها لأنه تزوج بألمانية!

هنا اعتدل "أكرم" في جلسته، بطريقته عندما يوشك أن يلقي محاضرة، وقال:

- اسمعوني جميعًا.. إن كنتم تظنون أنني إذا كان الأمر بيدي في تلك الأيام كنت سأفعل بكم نفس ما فعله "هتلر" فأنتم مخطئون.. ديني يمنعني من مجرد إهانة أسرى الحرب، الذين هم محاربون بالأساس.. فما بالكم بقتل أو حرق أطفال ونساء ومدنيين.. لسنا وحوشًا إن كنتم ظننتم هذا. لكن مربط الفرس هو إخواننا الذين هناك تجاورونهم.. الفلسطينيون. صدقوني، كل صفعة تنزل على وجه أيّهم، تنزل أضعافًا مضاعفة على وجه كل مصري وعربي.. استمروا فيما أنتم فيه وستظل النار متأججة في القلوب، إن كان هذا ما تتساءلون عنه بأعينكم منذ جئنا هذا المكان. وبخصوص اسمي فهو "أكرم"، وأنا أسحب اسمي المزيف وأعتذر عن قوله عمومًا.

فصفّق الجالسون بحماس، لم أعرف هل هي سخرية أم تفاعل حقيقي أم نفاق.. ولعنت "أكرم" في سرّي كونه فتح الكلام في السياسة، أقذر موضوع عرفته الإنسانية. لا يجوز الكلام في السياسة وأنت تأكل مقلوبة على البحر في راس شيطان.. ومع

إسرائيليين!

بتعقّل لم أتوقعه، حيّاه بعدها الجميع، وطلبوا السماح بعدم الرد ولا الاستطراد في هذا الموضوع الشائك.. دعنا نمضي وقتًا طيبًا فحسب.

برافو!

وانتهينا من الطعام ونزل الشاي العظيم، ودارت أحاديث كثيرة ونكات أذابت ثلوجًا كثيرة.. فعادت "ميرخاف" من جديد تقول بمرح:

- لقد أكلنا معًا عيشًا وملحًا؛ لا يصح أن تقتلونا إذا قامت الحرب.

سألناها عن مصدرها لذلك المصطلح المصري الأصيل، فقالت إنهم يستخدمونه أيضًا، لكنهم كذلك يعرفون الكثير من عادات ومصطلحات المصريين، وأن منذ زمن ليس ببعيد كانوا جميعًا يتراصون أمام أجهزة التلفاز لمشاهدة الفيلم المصري الأبيض وأسود، الساعة الخامسة عصرًا، وكم من المرات بكوا تأثُّرًا بالقصة وأحداث الفيلم!

يشاهدون أفلامنا ويعجبون بها دون غضاضة، ونحن ننعت من يزور المسجد الأقصى بالخائن، كون جواز سفره حصل على ختمهم.

سألتها عن فيلمها المفضّل فأجابت أنه ذلك الفيلم الذي

أعطى فيه الصيدلي دواءً خاطئًا لطفلة ستذهب به لأبيها.. وهكذا انطلق كل منهم يقول فيلمًا يتذكره، إلى أن عادت "ميرخاف" لسؤالها من جديد:

- إذا قامت الحرب، ورأيتمونا وجهًا لوجه.

لم تستمر أكثر من هذا في السؤال الواضح.. فقط هي تنتظر ردًا. قبل أن تأكلني حيرة البحث عن إجابة مناسبة، رد لها "عمر" السؤال قائلاً:

- أنتِ ماذا ستفعلين؟

فرد صوت ذكوري بثقة ويقين:

- سأقتلكم طبعًا.. سأحرقكم.

٢٧-

لم تنتظر أمريكا أكثر من هذا.

جاءت هكذا من دون مقدمات أو ترتيبات أو ألعاب سياسية كثيرة.

جاءت.

جاءت لتحارب الجيش المصري الذي يحارب الجيش الإسرائيلي، مولية ظهرها للجيش الإسرائيلي الذي يقتل المدنيين في القاهرة.

كانت ذريعتها في هذا التدخل المباشر هو فصل القوات، لتنفيذ قرار منتظر بوقف إطلاق النار من مجلس الأمن حال صدوره.. وفي الغُرف المغلقة استطاعت أن تحيّد أوروبا بحجة أن توسيع دائرة التورط كفيل بإشعال حرب عالمية ثالثة، لم يمضِ على انتهاء الثانية إلا بضع وعشرون عامًا.. ولأسباب مجهولة صمت الاتحاد السوفيتي تمامًا.

تم إبرار الفرقة ١٠١ المحمولة جوًا غرب السويس، للتمركز بحجة الدعم السريع حال الاحتياج إليه. وتحرك الأسطول السادس الأمريكي المتمركز في البحر المتوسط صوب مصر..

ونظرًا لتقدم خطوط الدفاع الجوي المصرية للأمام كثيرًا صوب إسرائيل، لم يكن آمنًا تمامًا لطائرات الإنزال وشحن الدبابات الأمريكية الاقتراب من تلك المناطق. وتم إنزال جيش كامل من دبابات وجنود ومدرعات غرب قناة السويس.. وللمفارقة الغريبة، بدؤوا هم في عبور قناة السويس للضفة الشرقية.

أمامهم ثلاثة أو أربعة أيام للحاق بالجيش المصري من الخلف.

وفي جبهة الدم المتدفق.. يستمر تقدم الجيش الإسرائيلي بقيادة "شارون" مستمتعًا بشلالات الدم المُراق.. فيجد في وجهه ما لم يدرك كنهه أو حقيقته حينها.

كان جيشًا من العمال استبقوا تقدم القوات، وقاموا بالاستعانة بالمثاقب الهيدروليكية (التي يستخدمونها في شق الأسفلت وحفره) فتتوا الأسفلت بما مقداره عرضًا اتساع الشارع كاملاً، وطولاً ثلاثين مترًا.. انطلقت بعدها جحافل من المدنيين العُزّل في إزاحة الركام والمخلفات الناتجة عن التفتيت.. عملية لوجيستية ضخمة محمومة، طوابير مصفوفة كطوابير النمل.. وسريعًا جاءت مجموعة كبيرة من اللوادر لتقوم بعمل حفرة في تلك الشريحة.. كانت التحركات كثيفة وملتهبة.. والتنسيق وتحريك المجموعات يتم باقتدار.. والتهليل والتكبير لا ينقطعان.. لم يكن هناك خوف من الموت.. فقط الجزع والهلع على وطن يرونه على طريق الضياع.. استطاعت اللوادر الحفر إلى عمق متر..

وجاءت الأخبار أن الإسرائيليين يفصلهم ثلاثة كيلومترات فقط لا غير.. فانتقلوا إلى الجزء الثاني من الخطة.

قامت الحشود بتثبيت مشمع البوليثين سريعًا بطريقة بدائية على جوانب وقاع الحفرة.. وظهرت سيارات تموين محطات البنزين وضخّت الواحدة تلو الأخرى كامل حمولتها في ذلك الخندق البدائي.. لا أحد يعلم يقينًا من صاحب تلك الخطة، أم أنها وليدة التفكير الجماعي اللحظي، أم هي إلهام إلهي بحت.

سيارة وراء سيارة، إلى أن امتلأ الخندق إلى منتصفه تقريبًا، قبل أن تتم تغطية البنزين بطبقة مشمع بلاستيكي أخرى.. وظهرت بوادر الجيش الإسرائيلي.. بعد أن ابتعدت وتوارت تريلات البنزين واحتشد المدنيون في مخابئ جانبية منتظرين دخول الخنزير للفرن.

يضحك "شارون" والإسرائيليون عندما يرون ذلك الخندق البدائي الذي يمكن لأي دبابة تالفة أن تعبره بسهولة.. لعلهم ظنوا أن ذلك السائل تحت المشمع البلاستيكي مياه نتجت عن كسر ماسورة، وليس بنزينًا.. كل هذا لا يهم.. المهم أن قرابة ثلث معداتهم ودباباتهم صارت في قلب ذلك الموقد فعلاً.. فيخرج المصريون من المخابئ ويفعلونها.. تشتعل نار جهنم ويشتعل معها حماس وتكبير المصريين وهم يشاهدون أيديهم العارية تضرم نيران مهلِكة في معدات عسكرية إسرائيلية.

وفي سيناء يعبر الجيش الأمريكي القناة ويبدأ الزحف خلف الجيش المصري الزاحف نحو إسرائيل.. لم تردّ الإدارة الأمريكية على أي من النداءات والمبادرات المتلاحقة المنطلقة من العالم.. لا مجال للمرح الآن.

هنا يجن جنون جميع المصريين والعرب المقيمين بالخارج.. خصوصًا المقيمين بأمريكا.. فيتفتق ذهن أحدهم عن فكرة جهنمية بحق.

كان اسمه "حسام إسماعيل منصور".. يعمل طبيبًا في أحد المستشفيات في واشنطن. قام بكتابة رسالة بالإنجليزية بخط يده، مفادها أنه يأسف بشدة ويحزن بعمق على الضحايا المدنيين الأمريكيين الذين سيسقطهم بنفسه عندما يفجّر نفسه بعد قليل في أحد المراكز التجارية.. لكن ظلم وقهر أمريكا فاق المدى ولم يعد بيده أي سلاح إلا هذا، لردعها عن محاربة بلاده دونما أي دافع تمتلكه إلا نصرة الحليف اللعين إسرائيل.

قال في رسالته إنه الأول، لكنه لن يكون آخر استشهادي.. ولن يأمن أي أمريكي على حياته بدءًا من الساعات القادمة وحتى يوم الدين، في أي مكان، إلا أمام البيت الأبيض.. لديكم القوة أيها الأمريكان، عصيان مدني.. أوقفوا الدولة.. ومظاهرات حاشدة لها مطلب وحيد، إجبار الإدارة الأمريكية على الابتعاد عما ليس لها به شأن! انسحاب الجيش الأمريكي من الأراضي المصرية فورًا.

العمليات الاستشهادية لن تعرف الرحمة.. شوارع، مستشفيات، محلات، مدارس أطفال، مراكز تجارية.. كل الأماكن.. عدا أمام البيت الأبيض.

طلب منهم في رسالته السماح، وطلب من بني وطنه وعروبته أن يحذوا حذوه ويشعلوا العالم بأجسادهم.

وطبع "الدكتور حسام" ألفي نسخة من تلك الرسالة، ووزعها على عشرة من أصدقائه، لينسخوها بغزارة الأمطار ويغرقون بها العالم.. ومن شاء منهم فليتخذ قراره بعدها ويفعل مثله.

بعد مرور أقل من ثماني وأربعين ساعة كان صراخ المواطنين في الولايات المتحدة يكاد يُسمع في الصين، جرّاء سبع وخمسين عملية استشهادية ضخمة، منهم ثلاثة وثلاثين في واشنطن وحدها.. وطوّر أحدهم الفكرة وأصبح هناك بعض التفجيرات المزدوجة، بعد أن يفجّر الاستشهادي نفسه، ينضم إلى المصابين والجثث استشهادي آخر متظاهرًا أنه مصاب أو جثة تحتضر، ثم يفعلها عند وصول قوات الشرطة والإسعاف، وبعض من هذه التفجيرات حدثت أمام كاميرات التليفزيون التي وصلت مكان الحادث للتغطية، فحصلت على تغطية مباشرة للتفجير على الهواء بثّتها لملايين آخرين.. وتمّ اختطاف سفراء أمريكا والكثير من أبناء جالياتها في عشرين دولة في العالم، رهائن لحين تنفيذ المطلب البسيط الوحيد، دعونا وشأننا!

اشتعل الجحيم في كل مكان.. هنا وهنا وفي كل مكان هناك.

لم تكتفِ جموع بمئات الآلاف بالاحتشاد أمام البيت الأبيض.. بل اقتحموه وحطموا كل ما قابلهم، وأقلعت طائرة الطوارئ الخاصة برئيس أمريكا وعمت الفوضى في البلاد.

كل ثانية أصبح لها ثمن حقيقي.. تم اتخاذ القرار الصحيح دون تردد.. الانسحاب الكامل والفوري من مصر وإعلان حالة الطوارئ القصوى في أمريكا.

مصر تشعل العالم وتكتب التاريخ.

تنزل تلك الأخبار على جيوش مصر وسوريا والعراق والجزائر -التي وصلت بعض كتائبها بالفعل إلى القاهرة- تنزل كالوقود على نار إصرارهم المشتعلة أصلاً، فيلتهب حماسهم ويزداد إصرارهم.. وتوقن إسرائيل أنها صارت وحدها تمامًا.

وتصل الفرقاطات البحرية المصرية للبُعد المطلوب، وتتراص.. وتوجّه.. وينطلق أول صاروخ بحر - أرض على قلب تل أبيب.

العمق بالعمق.

وتصل في القاهرة قوات المنطقة المركزية وقوات الحرس الجمهوري أخيرًا وبشائر الجيش الجزائري، لملاقاة ما تبقى من الجيش الإسرائيلي لتبيده إبادة كاملة.

وتتقدم برًا قوات مصر وسوريا والعراق داخل الأراضي

المحتلــة.. متجهــين كالكماشــة صــوب تــل أبيــب.

بداية الاستحواذ على إسرائيل.

خطأ.. خطأ كامل. بل بداية تحرير الأرض الفلسطينية.

وفي غرفــة كبــيرة في مبنــى سري في صحــراء النقــب، كان هنــاك عــشرة إسرائيلــين كبــيرو الســن والرتــب في حالــة هيســتيريا كاملــة.. كان البــكاء واللطــم ســيد الموقــف.. وأصيــب أحدهــم بنوبــة صرع عنيفــة، لم يســعفه فيهــا أحدهــم.. قبــل أن يقــف كبيرهــم والانهيــار يمــلأ وجهــه وكيانــه ويتحدث معهــم بكلــمات قليلة للغايــة.. خرجت مرتعشــة لكنهــا احتــوت عــلى حقيقــة الوضــع والمســتقبل القريــب الأســود الآتي مهــرولاً.. ويعطيهــم أمــره الأخــير.. واجــب النفــاذ.. دون مشــورة.

كان المشروع اسمه "ميكرع هاكول".

ويتجــه كبيرهــم هــذا صــوب جهــاز تحكــم ضخــم كثــير الأزرار والشاشــات.. ويديــر مفتــاح مــن ميداليتــه في الجهــاز، فتــدب فيــه الحيــاة.. ويدخــل شــفرة مــن تســعة أرقــام.

"ميكرع هاكول" تعني حرفيًا: "قبل أن يضيع كل شيء".

ويــصرخ في آخــر يبــكي ويرتعــش.. فيتوقــف عــن الهيســتيريا وتلتمــع عينــاه جــذلاً.

ويجاور رئيسه.. ويدخل شفرته المكونة من تسعة أرقام.

المشروع النووي الإسرائيلي.

ويختفي تدريجيًا صوت النحيب من الغرفة.. وينظرون جميعًا بترقب مراقبين المشهد.

ليتقدم الثالث دون دعوة، ليدخل أرقامه التسعة هو الآخر.

فتضيء لمبة حمراء.

وتنتطلق في الغرفة صافرة عالية متقطعة، كصافرات الإنذار.

ويتعالى سباب جنوني باللغة العبرية من كل من في الغرفة.. وهم يحثون القائد على الإتيان بفعلته.

يضغط بالفعل دون تردد، زرًا من خمسة أزرار متجاورة.

وتبدأ المأساة الكبرى.

ويضغط الزر الثاني.

ويتعالى السباب العبري المحموم.

ويضغط الزر الثالث.

ميلحاماه بن أخيف قوحوط!

والزر الرابع.

أنتوم صوفطام شوحور!

والزر الخامس.

القاهرة – الرياض – بغداد – بيروت – الجزائر.

وداعًا.

-٢٨-

تَقُـولُ أُسْـطورَةٌ قَديمَـة إنّ حَـارِسَ الزّمَـنِ كَانَ جَالسًـا يَسْـتَمتِعُ بِمُشاهَدَةِ الكـوْن، وتَناغُـم وتَناسُـق عَنَـاصِرِه، ومُفرَداتِـه، ومُكَوّناتِـه.. فَدَبّـت فيـه الرّغْبَـة في أنْ يـأتي مَـنْ يَجلِـس مَعْـه يُشـارِكه التَأمُّـل والاسـتِمتاع.. فَقَـضى أوقَاتًـا طَويلَـة في محَـاولاتٍ حَثيثـةٍ وحِيَـلٍ غَرِيبـة.. حتـى حَـدثَ بالفِعْـل أنْ صَـارَ هـذا المَلِـك حَامِـلاً في كائـنٍ نقـيّ، فَفَـرحَ فَرَحًـا شَـديدًا، شَـاعرًا بـأنّ هـذا الّـذي بِدَاخِلـه يتمتّـعُ بالشّـفافية والجَـمَال، وسَيُشـاركه، حَـالَ اكتـمالِ نمـوّه ومَوْلـده، الاسـتِمتاعَ بالتنَاغـمِ الكَـونيِّ المُبْهِـر.

لكِـن يَكتشـفُ الحـارسُ يَومًـا بَعْـد يـومٍ أمْـرًا خطـيرًا.. يَكتشـفُ أنّ هَـذا الكـوْنَ بِجانـبِ جَمالِـه المكْتمـل، قـدْ خُلـقَ في حالـة اتّـزانٍ دَقيـق، وحَسّـاسٍ للغايـة. وزنُ ريشـةٍ إضـافيّ كفيـلٌ بـأنْ يهـدمَ كلَّ شيء. كلّ يـومٍ يمـرّ، يـزدادُ نُمـوّ ذلـكَ الكائـن بداخلـه، ويـرَى حَـارِسُ الزّمـنِ الكـوْن يختـلُّ اتزانُـه شـيئًا فشـيئًا.. ثمّـة شرْخٌ هنـا، وتصـدّع هُنـاك، واهتـزازٌ هُنـا، وارتِجـاجٌ هنـاك. لم تعـدْ الأمـورُ كـمَا كانَـت.

ارتَبـكَ الحَـارسُ وفكّـرَ كثـيرًا، وهـداه عقلُـه إلَى أنْ يَشْـطرَ هـذا الكائـنِ إلى اثنـين، ليعُـود التـوازنُ للكـونِ مـنْ جَديـد.. فقـامَ بحِيَـلٍ

أغـرب مـن تلـك التـي غـرسَ بهـا جنـينَ الكائـنِ داخلَـه، وحَـدَثَ بالفعـل، وانْبَثَـقَ كائـنٌ آخـر في نفْـس المـكانِ الضيّـق، فأصْبَحـا معًـا أوّل تـوْأمٍ يعْرفُـه الكـون. وكانَ أوّل مـا فَعَلَـه الكائـنُ الجَديـد، بَعْـد انبثاقِـه مـنْ أخِيـه، أنْ رَفَسَـه دُونَ قصـدٍ بِقَدمِـه في أنفِـه بعنْـفٍ.. مـا أثَـارَه بشـدّة، مُعتـبراً نفْسَـه صاحِـب المـكانِ الأصـليّ، وأنّ هَـذَا الجديـد هـو ضَيْـفٌ دخيـل. فَـرَدَّ تِلـكَ الرّفْسـة، بلكمـةٍ شـديدةٍ في عينِـه، شَـعرَ عـلى أثْرهـا بظلـمٍ واضّطهـاد.

عـادَ فعـلاً الاتّـزانُ النسـبيّ للكـوْن، وتألّـق جمالُـه مـنْ جَديـد، لكـنْ ذلـكَ الحـارس لم يتبـدّدْ قلقُـه. تلـكَ التّحـرّكاتِ المَحمومـةِ بِدَاخِلـه، وتلـك الاضطرابـات، جَعَلتـاه يوقـنُ أنّ التـوازنَ قـدْ عـادَ بالفِعْـل للكـوْن، إلا أنّ هذَيـن، مَـنْ بِداخِلـه، قَـد اجْتمعـت عِندهـما كلّ الطّاقَـةِ السّـلْبِيّة التـي تولّـدت بالفعـل عِندمـا تَكـوّنَ الكائـنُ الأوّل، وتَرَكّـزت مؤقّتًـا بداخـل الحـارس عِندمَـا تَكـوّنَ الكائـنُ الثـاني، الـذي أَعَـاد خَلقـه الاتـزَانَ للكـوْن، وخلـق حنقُـه مَشَـاعرَ الغضـبِ لأول مـرة في العـالم، حبيسـة إلى أن تخـرج للعـالم. لـنْ يلبـث التناغـمُ الكـونيّ أنْ ينهَـار، فـوْرَ خُروجِهِـما معًـا بالفعـل.

كانَ يشْـعر أنّـه مِـنَ الـضّروريّ، وبشـدّة، أنْ يَخـرجَ الكائـنُ الأولُ إلَى العـالم، قَبـل أخيـه المَنْشـطِر عنْـه، لـيرَاه ويـزداد خـبرةً تؤهّلـه لامتِـلاكِ زِمـامِ الأُمـورِ مُسـبقًا.

قَـامَ الحـارسُ باسـتعدالِ الكائنَـيْنِ بِداخِلـه، ليَضْمـنَ خُـروجَ الأولِّ للعـالم قبْـلَ الثـاني، بأسـاليبٍ غَريبـة، كانَ أبْسَـطها أنْ أَدخـلَ ثُعبانًـا

كَبيرًا مِنْ فَمِه إلى أحشائه مُمْسكًا بِذيلِه، ليَدْفعَ الكائنَيْن دَفَعَاتٍ كَثيرة، تضمنُ خُروجَ الأولِّ أوّلاً. وأثناءَ خُروجِ الثّعبانِ مِنْ أَحشاءِ الحارس، قَامَ الكَائنُ الثاني مُغتاظًا بِعضِّ ذَلكَ الثّعبان، فَعضَّه الثّعبانُ في رقبته، وامتزجَ دمّهما وجرَى في الثعبانِ فصارَ سامًّا للأبد، هو وذريته، وحَصَلَ الكائنُ الثاني علَى مَنَاعةٍ أَبديّة مِنَ السّموم، وتضاعف شعوره بالاضطهاد والحنق.

وجَاءَ اليومُ المَوْعُود.. يَوْم الخُرُوج.. يَوْم الدُخُولِ للعَالَم.. وحبَسَ الحارس أنفاسه.

فانْقضَّ الكَائنُ الثَاني عَلَى الأولِّ انقِضَاضةً عَنِيفةً مَنَعَته مِنَ الخُروج، وكَادَ أنْ يَخرجَ هُو، قَبْل أنْ ينقضَّ عليْه في المُقابلِ الكَائنُ الأولّ ويزِيحه.. واستَمرَّ العراكُ عَلَى هَذه الحَال، ما أدّى إلَى تَحريكِ رِياحٍ عَاتِيةٍ في الأرْض، اصْطَدَمَ بَعْضُها بِصخورٍ صَلْدَة دَفَعَها للاصْطِدام بسيقَانِ أشْجارٍ جَافّة، فتَولّدَت شرَارة تَكفّلَتْ بَاقِي الرّيَاح بإشْعالِها نارًا لأولِ مرَّة في عُمْر الكوْن.. اشْتَعلت النّيرانُ في اللحظةِ التي كانَت عيْن الكائنِ الثَاني وسْط عراكِه مع أخِيه مطّلعة علَى المشْهد.. فأثارَ شهَواتَه وجُنونَه مرْأى النيرانِ العَظيمة التي تأجَّجَت.. وتولّدت بداخِلِه طاقةٌ مَهولةٌ أَعطتْه القُدرة على دفْع أخيه بعنْف.. والخُرُوج أولاً.. والوُقوف لِمُشاهدَة العالَم والنِيران التي خَلَبت لُبَّه وهَامَ بِها عِشْقًا.. فَحَملتْه الرّيَاحُ العَاتِية إلَى قلْبِ تِلك النّيران، فكَانَ أوّل مَا فَعَلَه في الكوْن أنْ أمْسكَ بعْضَ تِلكَ النيران وانْطلقَ بها يوزّعُها هُنا وهُناك.. وسُمّيَ "قائظ".

ثُـمّ خـرَجَ الكَائـنُ الأوّل.. وَقَـفَ يُشـاهدُ النّـيران التـي تَتَحـرّكُ بعَشـوائيّة، ولَـمْ يَرتَـحْ لِمَظْهرِهـا، فَحَملتـه الرّيـاحُ إلى سُـحبٍ كَثيفـةٍ أسـقطت أمطـارًا عـلى النـيرانِ لتُطْفئهـا، وانطلقـت في سـباقٍ محمومٍ وراءَ كلّ قِطعـةِ نـيرانٍ يشـعلُها "قائـظ"، الـذي يُطـاردُه الكائـنُ الأوّلُ الـذي وُلِـد ثانيًـا.

اصطَدَمَـتْ عينـا "قائـظ" أثنـاء مُجونِـه بقطعـةٍ عمْلاقـةِ مـنَ الأرضِ هـي الأجمـلُ والأروعُ أبـدًا. ألقَـى النـيرانَ مِـنْ يـدِه، ووقـفَ يتأمّلُهـا فاغـرًا فـاه. دخلَهـا منبهـرًا، بخطـواتٍ حَثيثـة، وأخـذَ يتجـوّلُ بِهـا ويُشـاهد. صـارَ يتجـوّل إلى أنْ وجـدَ رجلـين وامرأتـين على وشـك الـزواج، لكـن أحدهـما كان يريـد امـرأة الآخـر لا امرأتـه هـو.. لمحها "قائـظ" في عينـي الرجـل.. فاقـترب منـه ووقـف أمامـه، ونظـر في عينيـه، قبـل أن يلـوي رأسـه صـوب أخيـه ويعيـد نظـره مـن جديـد لعينـي الرجـل اللتـين تأججتـا نـارًا.. فنظـر "قائـظ" إلى امـرأة الآخـر ثـم إلى امـرأة الحانـق، ثـم إلى عينـيّ الرجـل مـن جديـد، الـذي أخـذت أنفاسـه في التسـارع وناصيـة رأسـه في التصبـب عرقًـا، فنظـر "قائـظ" نحـو حجـر كبـير عـلى مقربـة منهـما وأطـال النظـر، ثـم عـاد لعينـي الرجـل الغاضـب فوجـده محدقًـا بـذات الحجـر، فانزاح "قائـظ" عـن طريقـه ليسـير إليـه الرجـل ببـطء وهـو ينظـر نحـو أخيـه خِلسـة كل بضـع خطـوات.

وصـلَ الكائـنُ الأول في اللحظـة التـي أمسـك فيهـا الرجـلُ بالحَجـرِ ورفعـه سـائرًا نحـو أخيـه، و"قائـظ" يقـف بعيـدًا متواريًـا يراقـب. لم يـدر الكائـن مـاذا سـيحدث لكنـه شـعر بكتلـة مشـاعر سـلبية

مـن غضـب وغـيرة وأنانيـة وشـعور بالاضطهـاد تفـوح مـن حامـل الحجـر، فأخـذ ينصحـه بـإصرار أن يعـدل عـما ينـوي فعلـه، فسـمّي "واعـظ".

"قائـظُ" متواريًـا يترقّـب، و"واعـظ" بـإصرارٍ يَنصـح، والرجـلُ بغضـبٍ يقـترب، وأخـوه باطمئنـانٍ يجلـس.. وحـارسُ الزّمـنِ يَجْـأَرُ غاضِبًـا مـنْ كل هـذا الـذي يحـدث.

وارتفعـت ذراعَـا الرَّجـلِ عاليًـا بالحجـرِ، وصرخَ صرخـةً أزعجـت هـدوءَ العـالم والكائنـات، وهـو يهـوي بالحجـر عـلى رأس أخيـه ليهشّـمه، فتـصرخُ الامرأتـان صراخًـا ملتاعًـا طويـلاً حـادًا، ويضيـعُ سـلام الكـون للأبـد.

عُوقِـبَ حـارسُ الزّمـنِ بـأنْ نُسِـخَ منـه الكثـير والكثـير والكثـير.. نُسْـخةٌ واحـدةٌ حقيقيـة، والباقـي نُسَـخٌ افتراضيـةٌ موازيـة.. وأصبـحَ حارسًـا للأزمنـة كلّهـا.. وصـارَ عليـه أنْ يـتركَ مشـاهدةَ الكـوْن، وأنْ يتفـرَّغَ لمُراقبـة جميـع الأزمنـة.. وتدويـن جميـع أفعـالِ الرجـلِ وامرأتِـه وذرّيتهـما، هُنـا وهُنـا وهُنـاك. ومُراقبـة وتدويـن جميـع نتائـج تلـكَ الأفعـال كاملـة.. في الزمـنِ الحقيقـي، وفي كل الأزْمنـةِ المُوازيـة.

وعُوقِـبَ "قائـظ"، ومعـه "واعـظ"، بـأنْ صَـارا في عَـالمٍ أكـثرَ دونيّـة. لا يُشـاهدان مِـنَ الكـوْن شـيئًا، ولا يَسْـمَعان، إلا أفعـال ونتائـج الرجـلِ وامرأتِـه، ونسـلَيْهما. فتَفَرّغَـا لاسـتِمرارِ حَرْبِهـما معًـا، التـي وُلِـدَتْ بِمَوْلِدِهِـما.

هـذا يَغْـوي البَـشَرَ ويَدْفَعُهـم للـشرُور.. وهـذا يَنْصَحُهُـم ويَدْفَعُهُم للـبِرّ.. إلَى الأبَد.

-٢٩-

نظرنا جميعًا إلى ذلك الشخص الذي أعلن أنه سيقتلنا في الحرب، لنجده ذلك الشاب حاصد الألقاب (المصفوع.. المضروب.. المنبطح...) كان قادماً ليشاركنا الجلسة، ومعه أربعة أشخاص لم أرهم من قبل في المكان، كانوا من هؤلاء الذين يطلقون سوالف متناهية الطول تديّنًا.. أحدهم شاب والثلاثة الآخرون صبية مراهقون.. جاؤوا وجلسوا بهدوء، والأربعة ذوو السوالف يحملقون في أعيننا مباشرة دون أن يرفعوا أعينهم ولو للحظة.. الأعين تقُول كل شيء.. كل شيء.. لن يمر اليوم المتبقِّي لنا على خير، بشكل أو بآخر، علينا أو عليهم.. وكرر حاصد الألقاب إجابته بعد أن استقر في جلسته أمامنا:

- سؤالك ساذج جدًا يا أختي.. قوانين الطبيعة لا استفهامات فيها.. ضعي الماء في درجة الغليان ستجدينه قد صار بخارًا.. ضعيهم أمامنا في ساحة حرب سيقتلوننا، وإن لم يفعلوا سأستحم أنا بدمهم.

قبل أن يأخذ أي فرد منا أو منهم أي رد فعل، دوى في المكان صوت هو أغرب ما سمعته أذني في الحقيقة.. لو تجشأت الأرض

فلـن يكـون صوتهـا عـن ذلـك الصـوت ببعيـد.. فصرخَـت بفـرح العديـد مـن الشـابات وهبَّـت كثـيرات منهـن بالفعـل مهـرولات إلى مصـدر ذلـك الصـوت الغريـب المسـتمر.. فوقفنـا بالتبعيـة في محاولـة للفهـم، لـنرى شـخصًا يبـدو مـن شـكله وملابسـه أنـه قـادم مـن عصـور الديناصـورات، يرتـدي أشـولة وشـعره ولحيتـه لم يعرفـا مـاء أو مقصًـا منـذ خُلـق، وكان مصـدر ذلـك الصـوت الـذي لا يتوقـف هـو آلـة نفـخ موسـيقية طولهـا قرابـة المتريـن والنصـف، أي أنـه يحملهـا بالـكاد أمامـه وهـي تفوقـه طـولاً.. هـي تشـبه البـوق، وإن يبـدو أنهـا خشـبية وتتكـون مـن قطعـة واحـدة.. الغريـب أنهـا آلـة نفـخ، ولكـن الصـوت المنبعـث منهـا مسـتمر لا يتوقـف.. أعـرف أن البـدو لديهـم آلـة نفـخ لا تنقطـع نغمتهـا أيضًـا، ولكـن بتكنيـك مختلـف، حيـث ينفـخ العـازف في مزمـاره ويلعـب نغماتـه عـلى مفاتيـح معينـة، فينفـخ كيسًـا أسـفل الآلـة (أظنـه مصنوعًـا مـن جلـد الخـروف) وبعـد أن ينتهـي نَفَسُـه يضغـط بكوعـه عـلى ذلـك الكيـس ليعتـصره في جانبـه، ويخـرج الهـواء الـذي تـم تخزينـه.. المهـارة والتحـدي هنـا أن مفاتيـح النغـمات تكـون انعكسـت تمامًـا حينهـا، فيفـترض بالعـازف أن يعكـس ضرباتـه عليهـا.. لكـن هـذه الآلـة الطويلـة جـدًا ذات الصـوت الغريـب، كيف لا تنقطـع نغمتها.

دبّـت الحيويـة في المـكان كلـه.. العاملـون انطلقـوا في إعـادة رصّ السـجاجيد في منتصـف الشـاطئ وبـين مظـلات الجلـوس الجانبيـة، فتكونـت سـاحة بدائيـة كبـيرة.. ونُقلـت جميـع الوسـائد والطبليـات والشـموع إليهـا.. كانـت "ميرخـاف" تتقافـز فرحًـا، فسـألتها عـما

هنالك، فقالت لي إننا جميعًا محظوظون كون هذا الرجل -الذي لا تعرف اسمه- ظَهَر اليوم.. عرفتُ أنه شخص لا يعرفه أحد.. يظهر في مواعيد عشوائية، ليعطي المحظوظين الذين رأوه حفلاً موسيقيًا طويلاً.. ويلعب تلك الآلة المسماة "ديديجريدو".. وعرفت أنها آلة بدائية أسترالية، وسر النغمة المستمرة هو تكنيك يسمى التنفس الدائري بإدخال النفَس من الأنف ودفعه من الفم، مع تحريك اللسان والخدين بطريقة معينة، إلى أن يخرج النَفَس من الآلة العملاقة، ويكون حينها نَفَس جديد تم ابتلاعه من الأنف، وهكذا.. يساعد عازفها في تنفيذه أن الآلة طويلة جدًا بالأساس.

رأيت في تلك الرحلة أشياء غريبة كثيرة حقًا.

جلس الرجل وجلسنا جميعًا حوله في دوائر كثيرة.. كل من كان لديه آلة موسيقية وضعها في يده أو على فمه، وانطلق الجميع في عزف متناوب وفردي وجماعي.. ألحان كثيرة جدًا لا تتوقف، بعضها عربي وبعضها مصري.. من في يده طبول قَرَع عليها.. من أمامه كوب زجاجي استخدم ملعقة معدنية في طرقها برتم مناسب.. من أمامه طبلية أخذ يخبط عليها.. من ليس معه شيء كان يصفّق أو يغني بأي كلمات أو أصوات أو آهات.

يخبطني كل دقيقة أي شخص ليعطيني سيجارة حشيش مشتعلة.. آخذ منها بعض الأنفاس وأعطيها لمن يليني، لأتلقّى

خبطة جديدة من شخص آخر بسيجارة جديدة أو زجاجة لا أدري ما بها، لكنني أشرب، وأخبط من يليني، وأستلم السيجارة أو الزجاجة الجديدة.. والديديجريدو لا تتوقف عن التجشؤ العميق، والموسيقى المحمومة لا تتوقف.. شعرت بدوران كوكب الأرض حول محوره، وإن زادت سرعته قليلاً.. أردت أن أرفض المزيد من كل هذا الذي أشربه وأدخنه، فشربت المزيد ودخّنت أكثر.. استلقيت تمامًا على ظهري لأجد السماء تشاهدني.. حقًا لم أتوقع في يوم أن كل تلك الكمية من النجوم موجودة في الكون.. كثير منها كان ينوي الهبوط عليّ ببطء.. فرفعت يدي لأوقفها فارتدت لأماكنها بالفعل.. مررت يدي على النجوم فانسابت معي بالفعل كأنها حبّات رمل زرقاء.. فرفعت يدي الأخرى وأخذت أرسم ببطء بالنجوم على السماء.. شعرت أن هذا كثير.. متعة تفوق قدرتي الاستيعابية.. فاعتدلت في جلستي، لأجد جميع الشموع انطفأت.. صار الجميع مجرد أجسام سوداء وسط ليل أسود.. فأتسلم سيجارة حشيش أخرى.. أسحب.. أمرر.. أتلقى زجاجة.. أشرب.. أمرر.. تتجشأ الديديجريدو دون توقف.. موسيقى تعلو ولا تنخفض.. طبول تزيد ولا تقلّ.. نَفَس.. أمرر.. جرعة.. أمرر.. والأرض تقتلني بسرعة دورانها المتزايدة.. ويتحول الغناء العشوائي إلى غناء جماعي.. أصبح الجميع واقفين يتقافزون ويرقصون على أنغام مُقبضة مألوفة جدًا.. أجزم أنني سمعتها من قبل.

فنزلَت على منتصف ظهري العاري صفعة قوية، فاستدرت

منهَـك القـوى بـرأسي التـي صـارت تـزن طنًـا مـن الفـولاذ المصهـور.. اسـتدرت بجهـد خـرافي، لأرى سـوادًا لشـبح امـرأة تمتلـك شـعرًا ميدوسًـا، وقبـل أن أقـول أي شيء ضحكـت ضحكـة ماجنـة مميـزة، لأكتشـف أنهـا "حيزبونـة الكلـب"، وناولتنـي كبريتًـا وطلبـت أن أشـعل لهـا سـيجارة، فكّـرْت أن أشـعلها هـي شـخصيًا، فأشـعلت العـود وكان شـكلها وسـط الظـلام بتأثـير اللهـب القـادم من الأسـفل شـيطانيًا جهنميًـا.. وبعـد أن أشـعلت سـيجارتها قالـت وهـي تـصرخ وتضحـك:

- إنهم يقتلون صديقك الآن!

-٣٠-

يعود "حازم" إلى اللحظة السابقة لإطلاقه الصاروخ على جسر عبور الإسرائيليين إلى غرب قناة السويس.. يفيق من رؤيته كمن تلقى دلوًا من الماء المثلّج في وجهه.. مذعورًا يلهث بسرعة، وإبهامه متجمد على زر إطلاق الصاروخ ينتظر أمرًا بالضغط.. دون أدنى حيرة أو تردد يلغي "حازم" قراره، تاركًا، للمرة الثانية، الأمور تأخذ مجراها الطبيعي الذي يعرفه.. وما زالت مشاهد تلك الرؤيا التي مر بها تجثم على أنفاسه بشدة.

يميل عصا التحكم يسارًا ليبتعد بطائرته عن "شارون" وجيشه، مكتفيًا بلَيّ رأسه وإطلاق بصقة أصيلة من أعماقه عليهم، تلطّخ زجاج طائرته.. بصقة لن تغير مجرى التاريخ.. ويرجع ببصره أمامه إلى سيناء التي يخترقها حالاً، ليجد هوّة دائرية في السماء أمامه مباشرة، تعترض مسار طائرته المتجهة إليها بسرعة الصاروخ تمامًا.. قبل أن يأخذ "حازم" أي رد فعل، تخترق طائرته بالفعل تلك الهوّة المستمرة في الارتجاج، لتستمر بعدها الطائرة في التحليق، لكن بعد أن تغيرت ألوان وملامح كل شيء.. ثمّة شيء ها هنا.. هي سيناء ما زالت، نعم.. لكنه ليس في حرب أكتوبر.

"أي زمن ابتلعني الآن؟".

يستمر في التحليق، وينظر إلى الأرض فيفهم كل شيء.. إنه الخامس من يونيو ١٩٦٧.. وما أبشعه من تاريخ! يرى فرقًا من الجيش المصري مبعثرة تنسحب بعشوائية دون تنظيم.. يعرف أن طائرة وزير الدفاع المصري في سماء سيناء الآن، عائدة به من حفل بالإسماعيلية أقيم أمس، ما أدى إلى تعطيل عمدي لجهاز الدفاع الجوي بأكمله، تاركًا السماء مسرحًا لطائرات العدو تلهو به باسترخاء كامل.. يرى طائرات العدو في الأفق تلهو يمينًا ويسارًا بكامل عنفوانها، وتتبارى في اصطياد عناصر الجيش التي جاءها اتصال يقول "انسحبوا" قبل أن يُغلق بعدها الخط مباشرة.

وكأنما أغضبت طائرته طائرات العدو التي امتلكت السماء، تفرّغت جميعها لمقابلته وإكرامه بالصواريخ.. وهو ينحني ويهبط ويعلو.. يتفادى هذا الصاروخ ويميل بطائرته ويعدلها.. إلى أن وجد أمامه طائرة تبدو أقواهم بالفعل.. على نفس خط تحليقه.. ينحرف "حازم" فتنحرف الطائرة الأخرى معه.. يعود فتعود.. يعلو فتعلو.. صارا على نفس الخط.. لا مفر.

يقتربان بسرعة النيازك من بعضهما.. لا توجد أسلحة ولا صواريخ في طائرة "حازم".. لا يهم.

"لننفجر معًا".

يزيد "حازم" من سرعته.. ليجد الطائرة الأخرى تنحرف

تسعين درجة، بعد أن يهبط عنها صاروخًا وينطلق صوبه تمامًا.

لا مجال للمناورة.. يسحب ذراع Eject من جديد.. وينطلق "حازم" كالصاروخ الرأسي من جديد، قبل أن يمارس هوايته الجديدة، ويهبط بالمظلة هبوطه الثالث، في يوم النكسة تلك المرة.

يصطدم بالأرض في وسط سيناء، ولم يعد هذا غريبًا عليه.. يفكّ مظلته سريعًا.. ويتحسس معداته ليجد أنه لا يمتلك أي شيء.

رائحة هزيمة في الهواء.. غبار ساخن مُرّ يصدم عينيه وشفتيه.

هل يهرول غربًا مع المنسحبين؟ مجرّد التفكير في هذا غصّ حلقه.. يقف حائرًا.. محبطًا.. تائهًا.. قبل أن يتذكر أن البطل هناك!

ثمّة بطولات كثيرة قمنا بها وسط تلك النكسة، "حازم" سمع هذا من قبل.

يعرف القليل عنها.. لكنه يعرف أنها قد حدثت.. يعرف أن هذا البطل هو صاحب أبرز هذه البطولات وسط تلك الأيام المشؤومة.

يختار الاتجاه شرقًا.. بهمّة.

يعرف أن تلك الفرقة الآن بقيادة اللواء "سعد الدين

الشاذلي"، المكوّنة من مشاة ودبابات وأفراد مظلات، انقطعت عنها -كسائر عناصر الجيش- جميع الاتصالات بالقيادة العليا.

يركض "حازم".. شرقًا.

يرى الشاذلي السماء وقد صارت مسرحًا إسرائيليًا تمامًا.. الطائرات تذهب وتعود باطمئنان.

يركض "حازم".. ويلهث.. ويسمع أصوات رصاص وطائرات على ارتفاع منخفض للغاية.

يتخذ "الشاذلي" قرارًا انتحاريًا، لا يمكن أن يفكّر به مخلوق.

يركض "حازم".. ويدوّي انفجار ضخم قريب منه، يلقيه أرضًا وسط غبار كثيف ودخان وشظايا.

يقرر "الشاذلي" أن يتجه بفرقته شرقًا.. سيعبر الحدود.. سيتوغل في صحراء النقب.

ينهض "حازم".. منهكًا.. جريحًا.. يركض.. يلهث.

يجري وسط الجبال.. أصوات الطائرات تصمّ أذنيه.. يلتصق بالجبال كل حين حتى تمر الطائرات.. من ممر لممر.. من جبل لجبل.

يحدّث "حازم" نفسه.. هل كان من الأفضل أن يطعن "شارون" في ١٩٥٦؟ هل ما رآه في ٢٠٣٤ هو نتيجة للطعنة المزعومة بالفعل، أم هي هلاوس؟ أم كلاهما هلاوس؟ وماذا لو

لم تكن هلاوس؟ هل ما رآه آنذاك في المستقبل خير أم شر؟ هل فعل صاروخه في ١٩٧٣ كل هذا فعلاً؟ هل كان من الأفضل أن يطلقه؟ هل أطلقه؟ هل طعن "شارون"؟ هل نبيدهم مهما كان الثمن؟ هل نتركهم ونبني أنفسنا أولاً؟ هل يفعل أي شيء إذا التحم بفرقة "الشاذلي"؟ هل سيغير هذا شيئًا إيجابًا؟ سلبًا؟ هل يتغير التاريخ؟ هل تتغير نتائج المستقبل؟ هل غيّرنا ما بأنفسنا؟ ثم السؤال الأبدي، هل هذا حلم؟

ثم يقطع تساؤلاته المنهمرة التي تمزقه صوتُ هدير عالٍ مستمر من وراء جبل يقابله.. فيلتصق بظهره تمامًا في جبل ليتوارى.. لتسطع عليه طائرة هليوكوبتر تواجهه تمامًا.. ورغم الشمس الواقعة خلفها مباشرة، إلا أنه استطاع أن يرى وجه قائدها ضاحكًا، وهو يصوّب أسلحتها إليه.. ويضغط الزناد.

-٣١-

ديديجريـدو تتجشـأ وموسـيقى شـيطانية تُعـزف وطبـول تُقـرع وأغـانٍ عبريـة تُتـلى، وظـلام دامـس، ورأس ثقيلـة، وحيزبونـة تنفـث خـبرًا أسـود.

أقـلّ نسـمة هـواء كانـت تدفعنـي دفعًـا لا أسـتطيع مقاومتـه.. فقـط نسـمة أخـرى مـن الاتجـاه المقابـل كانـت تمنعنـي مـن الوقـوع.. أمـرني عقـلي أن أخنـق هـذه الميدوسـا الحيزبونـة، فلـم أقـوَ عـلى رفـع يـديّ.. بينـما يعلـو صـوت هـؤلاء بالغنـاء أكـثر وأقـوى، وتلـك الديديجريـدو لا ترحـم ولا تصمـت.

قتلنـي الرعـب عـلى صديقـيّ مـما قالتـه بشـماتة، تلـك المـرأة.. قـررت أن أبحـث عنهـما، فجرجـرت قدمـيّ كمـن يجـرّ هضابًـا، وأنـا أقـاوم الوقـوع عـلى تلـك الأرض الراقصـة.. ورأسي الفولاذيـة تـكاد أن تسـقط وتخلـع رقبتـي.

وعرفـت في تلـك اللحظـة تلـك الأغنيـة المألوفـة التـي يغنونهـا كالمجانـين.. إنهـا تلـك الأغنيـة مـن مسلسـل رأفـت الهجـان التـي كانـوا يحتفلـون بهـا في نكسـة يونيـو.

ما الذي يحدث؟!

أجرجر الهضبتين محافظًا بجهد على توازني.

ها.. ها.. نا ليا ها هاا.. نا ليا ها هاااا.. نا ليا هييه.. هاااا

ومن ورائي ضحكات "الحيزبونة" لا تتوقف.

أرى أشباح أشخاص بعيدة.. بجوار المطبخ البدائي.. يبدون في صراع ملتهب مع شخص مرتمٍ أرضًا، وإن كان يقاوم بعنف غير مسبوق.

ها.. ها.. نا ليا ها هاا.. نا ليا ها هاااا.. نا ليا هييه.. هاااا

اللعنة! تبيّنت من ملامح جسده وتحركاته أنه "أكرم"!

كبّلوه بجهد.. وأنا أجري نحوه بأقصى سرعة تسمح بها ساقان بوزن الهضاب ورأس من فولاذ.. فيرفع ذلك الشبح ذو السوالف الطويلة خنجرًا كبيرًا بكلتا يديه عاليًا.. ويهوي به على صديقي المكبَّل.

جزعًا صرخت باسمه بأعلى صوت.. فخرج اسمه همسًا بصوت مبحوح.. وأنا أترنّح وأتهاوى أرضًا.. فأمسكني قبل أن أصل للأرض شخص ما.. وأنا بالكاد أرى وأسمع.. أعتقد أن اثنين سنداني وقوفًا.. وثالثًا رأيته بالكاد أمامي ممسكًا بقلادة "عمر"، تلك اللبّانة.. وقال كلامًا لم أفهمه بلهجة ساخرة غاضبة كارهة متشفية، وهو يؤرجحها أمامي كالبندول.. قبل أن يدبّ

خنجـرًا حتـى غمـده في بطنـي.. وأدار مقبضـه.. ثـم سـحبه وطعننـي طعنـة كاملـة أخـرى.

الخاتمة

آخر ما حدث بوضوح هو الطعنتان.. ومزيج غريب من السخونة والبرودة بداخلي، مع شعوري بأنني صرت صلبًا، بمعناها الوزني ليس المجازي. ومن اللا مكان وجدت طائرة هليوكوبتر ترتفع من وراء جبل صغير وتمطرني بالرصاص وأنا ظهري ملاصق لجبل.. كهرباء عنيفة سرت في جميع موصّلاتي الحسية.. والسائل الدافئ اللزج بعضه ينساب وبعضه يتفجّر من مكانيّ الطعنتين.. بينما رصاص الهليوكوبتر يخترقني ويدفعني في الجبل الملاصق لظهري. يُرجى التنسيق فيما بينكم يا جماعة حول كيفية قتلي وهوية فاعلها، ليس أسلوبًا متحضّرًا هذا الذي يحدث!

و يختفي كل هذا تماما، وأرى مشاهد غريبة متداخلة..

أرى أطباءً وممرضات ينظرون إليّ من موضع علوي وهم يصرخون كالمجانين:

- محتاجين دم أكتر.. كيسين كمان.. كيسين كمان.

أرى حلقة الرقص والغناء تتحرك أمامي من جديد بتسارع

مهـووس وأجسـاد متداخلـة، وهـم يغنـون:

- هـا.. هـا.. نـا ليـا هـا هـا.. نـا ليـا هـا هـاااا.. نـا ليـا هييـه.. هـاااا.

أرى "أكـرم" عـاري الجـذع جاثيًـا جـواري عـلى الرمـال عـلى ركبتيـه وهـو يهـزني بعنـف ويـصرخ بهيسـتيريا:

- إسعاااااف.. إسعاااااف!

ألم تمُت منذ قليل يا "أكرم"؟! وأين "عمر"؟

أرى الأطبـاء والممرضـات مـن جديـد يراقبوننـي بلهفـة.. ويـصرخ أحدهـم في أحدهـم أن نبـضي يَضعـف.. فتُمسـك إحداهـن بذراعـيّ قطبـيّ كهربـاء وتجعلهـما يحتـكان ببعضهـما وهـي تصيـح بصـوت متصاعـد:

- واحد.. اتنين.. تلاتة.

وتلصقهما في صدري.

طاااااخ.

أنتفـض انتفاضـة تُقـوِّس ظهـري الـذي كاد ينكـسر.. قبـل أن أرتطـم بالسريـر مـن جديـد، لأجـد "أكـرم" مـا زال جـواري عـلى الرمـال يـصرخ:

- إسعاااااف.. إسعاااااف!

لجـزء مـن الثانيـة تهتـز الصـورة الضبابيـة أصـلاً.. ويحـل محلهـا شـكل الإلكترونـات السـالبة في التليفزيونـات القديمـة التـي تظهـر عنـد انقطـاع الإرسـال.

تششششششت.

مـا هـذا المـكان المتناهـي الضِيـق؟ لا يوجـد ثعبـان في الأرض يرضى بهـذا الشـق سـكنًا. لـو وصفتهـا بالممـرات فقـد جاملتهـا بشـدة، لكنهـا كذلـك عمومًـا، ممـرات رمليـة ضيقـة جـدًا بـين صخـور جافـة متناهيـة الارتفـاع.. لعـلّي في شـقوق فـ... مـا هـذا اللهـاث المتلاحـق الآخـذ في الارتفـاع؟ أم هـو نهنهـة بـكاء جماعيـة؟ أم هـو لهـاث أشـخاص تبـكي؟ أيًّا كان فـلا بـد أن أبتعـد بسرعـة، خصوصًـا أن تلـك الممـرات بـدأت تهتـز وتتحـرك مقتربـة مـن بعضهـا.. سـأتحول إلى بـودرة عـما قريـب. يعطينـي صـوت اللاهثـين المسـتمر في الاقـتراب دفعـة للمـضيّ قدمًـا بسرعـة نسـبية.. ينحـرف بي الممـر يمينًـا فأنحـرف معـه، والجـدران الصخريـة تسـتمر في الاقـتراب.. بعـض مـن الهـواء مـن فضلكـم. أرى في تجويـف عـالٍ في الحائـط "سوسـو" الملقّـب بـ"إدريـس" أو العكـس، جالسًـا رائـق البـال يدخن سـيجارة حشـيش، ومـا أن رآني حتـى أشـار لي أن أنحـرف يسـارًا في مفـرق الممـرات القريـب.. أجاهـد بشـدة لألحـق بـه قبـل أن تسـحقني الجـدران، أنحـرف يسـارًا فأجـد في نهايـة الممـر كـوّة عـلى العـالم الخارجـي يتسـلل منهـا ضـوء الشـمس.. أركـض بوضـع جانبي، فـاردًا ذراعـيّ وخـدي عـلى الحائـط، وأشـعر في ظهـري بالحائـط المجـاور، إلى أن أصـل للفتحـة وبـدون تـردد ألقـي نفـسي منهـا لأسـقط مـن

ارتفاع وأصطدم بعنف قبل أن تصرخ تلك الشابة المجنونة:

- واحد.. اتنين.. تلاتة.

وتسحق صدري العاري بذراعيّ الكهرباء من جديد.

طاااااااخ.

أنتفض بعنف كأن بداخلي شيطانًا يقرؤون أمامه آية الكرسي.

تششششششششت.

أسير وسط صحراء قاحلة في حالة مأساوية من العطش، ممسكًا بشيء ثقيل أجرجره من ورائي بجهد.. ألتفت ويتساقط عرقي، لأجد يدي ممسكة بشعر "حيزبونة" الكلب، أجرها على الرمال وهي تزوم وتزمجر بوهن فاردة مخالبها تحاول أن تغرسها في ساقيّ. أستمر في السير والشمس تشويني.. أشعر بضعف كامل، بالكاد أتنفس وأفتح عينيّ. ربطْت "الحيزبونة" من لفائف شعرها الرمادي في شجرة قريبة وانضممت إلى عمال يبنون مبنى عاليًا من الأحجار أملأ في الأجرة، عساي أشتري بها رشفة ماء.. أندمج في البناء وأنسى العطش قليلاً وأقف على الجدار عاليًا.. يناولونني الأحجار وأنا أضعها حجرًا وراء حجر مدماكًا وراء مدماك، وأعلو أعلو أعلو، إلى أن صار السحاب مشكورًا يتحسس جبهتي المتصببة عرقًا فيلطفها، وألعق بخار الماء بحثًا عن نقطة ماء، حتى لو كانت في صورة غازية. يتعالى من الأسفل صوت "الحيزبونة" في حالة سعار

وهياج تحاول أن تحرر نفسها من الشجرة، يبدو أنها شربت تلك اللعينة واكتسبت طاقة.. ألتقط حجرًا ضخمًا وألقيه عليها من مكاني فيسحق ساقها ولا يقتلها، لتملأ الدنيا من جديد بصراخها المشروخ. أسمع أزيزًا شديدًا فأتلفّت بحثًا عن مصدره واتجاهه، فتظهر طائرة حربية على ذيلها نجمة إسرائيل متجهة إلى المبنى لتدمره.. ألتقط القوس وسهمًا من جعبتي والطائرة تقترب، وأرى بطنها وقد تجهّز به صاروخ للانطلاق.. أتنفس بهدوء وأستجمع تركيزي وأصوّب القوس وأسحب السهم لأقصى مدى وذراعاي تتحركان مع مسار الطائرة، وأسمّي الله وأترك السهم، لينطلق ويصيب الطائرة في مركزها تمامًا فتتفتت إلى آلاف آلاف الوطاويط التي تطير في كل اتجاه، وهي تصرخ صراخًا مزعجًا جعل "الحيزبونة" تضحك بجنون، وهي تتلو تعاويذ بصوت عالٍ، فانقضت عليّ مجموعة من الوطاويط فاختل توازني، وسقطت من الارتفاع الكبير واصطدمت من جديد، لأجد عاشقة الكهرباء من جديد تتلقى أمرًا من أخرى بالاستمرار، فتعود لهوايتها وتعد لثلاثة.

طاااااااااخ.

أقف أمام "شارون" الذي تتساقط منه دماء كثيرة، دماء بشر غيره لا دماؤه هو.. ينظر إليّ بثبات وابتسامة وقحة تعلو وجهه.. أرفع ذراعيّ لأقصى مدى ممسكًا بالكرباج العملاق الذي أخذ لسانه يتلوى كتنين غاضب تم تحريره توًّا، قبل أن أهوي به على "شارون"، فتسقط عنه ملابسه وتدميه الضربة

على جذعه بالورب.. فلا تزول عنه الابتسامة الوقحة ويستمر في الاقتراب. أرفع الكرباج من جديد وأهوي به بكل قوة، ويعلو صوت صفعته على "شارون"، فيتوقف لثانيتين قبل أن يستمر في الاقتراب والغضب يكسوه محاولاً إخفائه.. أرفع ذراعيّ من جديد وأهوي بالكرباج، لأجده قد تحول إلى طرف حبل مشنقة ملتفة حول رقبتي، فبدلاً من أن أهوي بالكرباج أجذب الحبل فتطوقني الأنشوطة وتعتصر رقبتي، وأنا أعلو لفوق سريعًا بفعل جذبي للحبل.. أتفوّه بكثير من حروف الغين والخاء وساقاي تركلان الهواء بعنف.. أجذب الحبل جذبة واحدة قوية لتنفتح مظلة على ظهري، لا تخفف كثيرًا من سرعة سقوطي، إلى أن أصطدم من جديد لأجد صديقتي الحنون التي لا تمل صعقي.. مساء الخير.

طاااااااااااخ.

أنطلق مع جنود ممسكًا بسلاح آلي ونحن نطلق الرصاص دون توقف على جيش آخر، يعلم الجميع أن تلك الوحدة العسكرية التي نقاتلها إذا سقطت فالنصر من ورائها حتمي وأكيد.. نستميت في القتال ويستميتون في الدفاع.. فأجد الأبكم من وسط الجنود يصيح عاليًا مكبّرًا، ويلقي سلاحه ويمسك بكتاب ويجري أعزل باتجاه الوحدة العسكرية المعادية.. فنوفّر له غطاءً كثيفًا من النيران، يمنع العدو من اصطياده، ويسقط منا ومنهم الكثير، والأبكم يقترب راكضًا كالزجزاج منحنيًا دافنًا رأسه بين كفّيه، إلى أن وصل الوحدة وألقى نفسه وسطها،

ودوى تفجير هائل فتت الجميع.. الأبكم والأعداء، فنتقدم نحن بإصرار وقد صار الطريق مفتوحًا. فنسمع على قمة جبل قريب صوتًا عاليًا غريبًا فنلتفت لنجد الرجل غريب الشكل ممسكًا بالديديجريدو المتناهية الطول، وينفخ فيها مُصدِرًا صوتها الضفدعي، فيخرج من طرفها فقاعة آخذة في التضخم، إلى أن صارت كرة عملاقة تحجب السماء، سبحت في الهواء إلى أن صارت فوقنا تمامًا.. ثم.. بوووووم.

تششششششت.

أعود إلى راس شيطان من جديد، وإن صار الكامب أوسع بكثير وصار له مرميان في طرفيه ومدرجات تتسع لمائتي ألف، محتشدة بالجماهير المشتعلة حماسًا وتشجيعًا. أقف على الخط في انتظار النزول مكان لاعب زميل.. وجماهيرنا مشتعلة بالهتاف والتشجيع:

- العوّ أهو.. العوّ أهو.. العوّ أهو...

وأسمع بوضوح "محمود بكر"، الذي يبدو أنه يعلق على المباراة من مكان ما:

- اللي كان في البلكونة بيشرب سيجارة ولسه داخل بنقول له إن "شارون" جاب هدف جميل.. واحد هيقولي.. الله؟ يعني عدّى ربع ساعة وفرقتنا متفككة كده والخصم يجيب جول واحد بس؟ إزاي؟ أقوله دي بقى اللي اسمها تساهيل ربنا هاهاها.. بس فعلاً إحنا محتاجين نقرّب خطوطنا شوية

مـن بعـض.. الفريـق تحسـه مـش متربّـط.. والمشـاكل الداخليـة بـين اللعيبـة دُوْلِي باينـة جـدًا ومأثـرة عـلى شِـكْل الأداء.. تحـس كـده كل لعيـب منهـم بيلعـب في وادي تـاني لوحـده.. عمومًـا.. إحنـا بنتمنـى إن محافـظ إسـكندرية يعمـل تجديـدات في محطـة الرمـل زي الـ...

- واحد.. اتنين.. تلاتة.

طاااااخ.

يعـود صـوت "مدحـت شـلبي" يـدوي في أذني مـن جديـد، ومـن ورائـه صـوت تشـجيع جنـوني مـن الجماهـير، وهـو يتحـدث بكلـمات سريعـة وصـوت عـالٍ لائـم غاضـب:

- مـش ممكـن يـا جماعـة.. مـش ممكـن كـده بجـد حـرااام.. شـوية تركيـز يـا إخوانـا.. متوتريـن مـن إيييـه بـس! متوتريـن مـن إيـه! حـد يقـول للكوتـش يقفـل الشـوارع المفتوحـة ورا في الدفـاع دي.. ونـزّل "حـازم" يـا سـيدي يـلا بقالـه سـاعة بيسـخن ع الخـط ليـه.. مـش ممكـن يـا جماعـة مـش يومنـا خاااالـص النهـارده.. عمـومًا.. خلينـا متفائلـين.. لسـه الأمـاني ممكنـة، إن شـاء اللـه بـإذن اللـه.. نركّـز بـس شـوية يـا جماعـة.

"محمود بكر":

- ولـو إنـت لسـه داخـل مـن البلكونـة لأ ارجـع تـاني.. عشـان إحنـا مغلوبـين دلوقتـي تمانيـة واحـد.. وبالمنظـر الـلي كلنـا شـايفينه ده لسـه هنشـيل كتـير.. الحكـم بيبـصّ في سـاعته، هاهاهـا بنقـول

لـه لا يـا كابـتن الماتـش ده مبيخلصـش.. ده ماتـش طـول العمـر.. بـس عايـز تركيـز عـالي.. وبمناسـبة التركيـز، النـاس الـلي بتعـدي كورنيـش إسـكندرية بتبقـى متلخبطـة وبتحصـل حـوادث كتـير.. يـا ريـت يعملولنـا أنفـ...

طاااااااااخ.

تشششششششت.

أخـيرًا أنـزل أرض الملعـب، أنـا مـن لم ألمـس كـرة في حيـاتي إلا نمـوذج الكـرة الأرضيـة عـلى مكتـب والـدي.. يبـدو انتشـاء كبـير عـلى الفريـق الخصـم، وفريقنـا في حالـة مهلهلـة لكـن جماهيرنـا لا تيـأس ولا تتوقـف عـن التشـجيع بجنـون.. وكذلـك جماهـير الخصـم التـ...

طاااااااااخ.

- كيس دم.. كيس دم.

- النبض بيقلّ جامد.

- بسرعاااة.

تشششششششت.

أسمع الآن المعلق التونسي "عصام الشوالي" يدوي:

- ليـس لاعبًـا عاديًـا أبـدًا.. انظـر مـاذا حـدث للجميـع مـن مجـرد

وقوفه على الخط قبل النزول للملعب.. والجماهير.. الجماهيير انظر اسمع شووف.. حتى اللاعبين أنفسهم لم يعودوا كأنفسهم.. تلاحموا كالفرسان.. تعاونوا كالبنيان.. انطلقوا كالشجعان.. يلعبون يثأرون يسحقون.

طاااااااخ.

واقفًا مذهولاً بمنتصف الملعب أتأمل كل هذه التحركات.. فيحدث ما لم أرده إطلاقًا.. وغد ما مرر لي الكرة واستقرت تحت قدمي.. جماهيرنا يجن جنونها تشجيعًا وهتافًا.. ألتفت إليهم لأجدهم يتقافزون ملوّحين بكل أطرافهم نحو مرمى الخصم.. ألتفت للملعب لأجد فيلقًا كبيرًا من المنافس يهرولون نحوي ولا ينووون التفاهم.. فلأبدأ. ركلت الكرة وانطلقت أركض وراءها وهم ورائي.. أرى "عمر" في الجناح الأيمن، فأمرر له الكرة، فيستلمها ويدفعها أمامًا، وينطلق يطاردها، ولاعبو الخصم وراءه.

أسمع "محمود بكر" يهتف بحماس شديد:

- اللي في البلكونات يخشوا.. اللي في البلكونات يخشوا.

و"مدحت شلبي" يصيح:

- يلا.. يلاااا.. يلاااا!

الإماراتي "رؤوف خليف":

- ويوزّع.

"الشوالي" يصرخ:

- يرفعها "عمر".. يستقبلها "أكرم" على صدره حلوة برشا.. فرصة تسديدة.. فرصة هدف ولا أروع.. ويسدّد! جووووول.. جووووووول.. جووووول من كورة شعارها إبداع.. ولغتها إمتاع.. وسحرها إقناع.. موش مُمكُن موش مُمكُن موش مُمكُن.. الكوورة تخشع للمصريين من جديد.

"شلبي" يصيح:

- يا سلاااام عليييك يا حبيب والديك.. هالله هالله هالله.. بص الجمال بص الحلاوة.. اتفرج ع البصة والنطة.. ع السندة والحطّة.. ع القَطّة والبطة.. عالمي يا ابني عالمي.. إنت أكيد من عاااالم تاني...

طاااااااااااخ.

تشششششششت.

يعود "محمود بكر":

- لو إنت كنت بتسجّر في البلكونة ولسه داخل، لأ بقى خليك معانا هنا شوية.. فرقتنا اتغيّر أداءها تمامًا أول ما "حازم" نزل.. واحد من مشجعي الخصم هيقولي إيه يا عم مالك منشكح كده ليه أقوله معلش بقى الدم بيحنّ.. هيقولي طب اسكت

بقى، أقوله طب أنا هسكت خالص أهو.. واحد تاني هيقولي يعني هي الكورة بالروح وبالمش عارف إيه! أقوله الروح مهمة جدًا جدًا.. بس "حازم" مش فارق مع فرقته بس بالروح، بس كمان عشان عنده رؤية.. اللي حصل فنيًا بالظبط إن نزول "حازم" لمّ معظم فرقة المنافس ناحيته.. وبالذات جناح "شارون" اللي كان مفتري في اللعيبة.. مكانش لاقي حد يلمّه هاهاها.. دلوقتي بقى بينهج ورانا.. وبكده "عمر" و"أكرم" فضيوا خالص ولقوا مساحات يلعبوا فيها.. وكل ده فَرَق في الأداء والنتيجة اللي متقدمين فيها بتسع أهداف أجمل من بعض الصراحة، والعدو تمانية.

تششششششت.

يعود "مدحت شلبي" متحدثًا بقلق:

- نخلّي بالنا بقى يا جماعة.. بيلمّوا نفسهم فرقة المنافس أهي.. نركّز شوية وبلاش مبالغة في الفرحة دلوقتي.. هنحتفل كلـ... أهو اللي بحذّر منه أهو.. أهو.. خلي بالك.. خلي بالك.. خلي بالك.. ميعديش.. امسكه.. عدّى بالفعل.

فأسمع المعلق الجزائري حفيظ دراجي كعادته في التعليق، قلقًا عند تعرض فريقه لهجمة خطرة:

- مهاجم الخصم ينطلق من ثلاثين مترررررر.. ينطلق.. حذاري حذاري حذاري حذاري.. أووووه.. أوه لالا أوه لالا أوه لالا أوه لالا.. يضرب مُدافعنا بالكوع في وجهه! أين أنت

يـا سـيدي الحكـم! يـا سـيدي الحكـم.. يـا سـيدي الحكـم.. ينطلـق.. ينطلـق.. أووووووه يـوه يـوه يـوه لالالالاااااااااا.. والهـدف.

و"محمود بكر" يستمر:

- ولـو فيـه واحـد اتأخـر شـوية في البلكونـة ولسـه داخـل بنقولـه إن الخصـم لمّ خطوطـه مـن جديـد.. وعـدّل النتيجـة لحداشر تسـعة لصالحـه.. واحـد هيقـولي اللـه؟ إيـه الـلي حصـل مـا كنـا حلويـن؟ أقولـه اللعيـب مـن دُولِي قعـد بقـى يفكـر هيحـكي لصحابـه في القهـوة بالليـل عـن الأجـوان الـلي جابهـا.. والـلي بيفكـر هيجيـب هديـة لخطيبتـه إيـه بمناسـبة الفـوز.. والماتـش لسـه شـغال أصـلاً.. في وقـت غيـاب التركيـز ده كلـه، الخصـم اشـتغل عـلى الحتـة دي وهجـم بـكل خطوطـه وعـدّل النتيجـة لصالحـه.. التحـدّي دلوقتـي إن فرقتنـا تطلـع مـن الإحبـاط ده بسرعـة وإلا هيشـيلوا أكـتر.. كان زمـان يقولـك إيـه في المواقـف الـلي زي دي.. يقولـك الجـول بييجـي في ثانيـة.. هنـا بقـى دور عنـاصر الخـبرة في الفريـق.. ولـو إن كالعـادة المشـاكل أهـي بتظهـر تـاني في الفرقـة، وبيتخانقـوا مـع بعـض تـاني.. والخصـم بيـضرب في لعيبتنـا كأننـا ناقصينهـم.. واحـد يقـولي أومـال الفيفـا فـين مـن التجـاوزات دي.. أقولـه فيفـا زلاطـة هاهاهـا.. إيـه ده؟ ده كـمان جـول أهـو.. وتصبـح النتيجـة الخصـم اتنـاشر.. وإحنـا تسـعة.

تعـود الكـرة إليّ مـن جديـد.. لا بـد مـن اسـتعادة الثقـة والـروح.. أقـرر تبـادل مجموعـة مـن التمريـرات المضمونـة مـع زمـلائي،

لتوحيـد الصـف وتنظيـم الخطـوط.. أمـرر لـ"عمـر".. فيمررهـا لي وينطلـق ليتخـذ مكانًـا أفضـل.. أرفعهـا لـ"أكـرم" فيسـتقبلها عـلى صـدره وينططهـا عـلى ركبتيـه ثـلاث مـرات قبـل أن يمررهـا رائعـة لزميـل.. يلتقـط الجميـع إسـتراتيجية مـا يحـدث.. فنسـتمر جميعًـا في هــذا الأسـلوب.. ويتفاعـل معنـا جمهورنـا بحـماس في وصلـة دعـاء.. فيقفـون جميعًـا بعـشرات الآلاف، أيـدي كل منهـم عـلى كتـف الآخـر.. فيلتفتـون جميعًـا مـرارًا وتكـرارًا، بغتـة ذات اليمـين وهـم يهتفـون هتافًـا موحـدًا:

- هُوووووووه.

قبل أن يلتفتوا متوحدين ذات اليسار هاتفين:

- حيّ.

يربــك تنظيــم صفوفنــا الخصــم وجماهــيره، وننجــح في إحــراز هدفـين متتالييــ...

طاااااااااااااااخ.

تششششششششت.

أرى المدرجـات هنـا وهنـاك مشـتعلة تمامًـا تمامًـا بالتشـجيع والهتـاف وتلويـح الأعـلام، والقفـز وإشـعال الشـماريخ.. مدرجـات المنافـس تهتـف بـإصرار دون توقـف:

- هـا.. هـا.. نـا ليـا هـا هـاا.. نـا ليـا هـا هـاااا.. نـا ليـا هييـه..

هــاااا.

ومدرجاتنا تهتف بصوت يحرّك الرياح يجعلها عواصف:

- كاس العالم.. كاس العالم.. كاس العالم.

طاااااااااااااااخ.

تششششششششت.

ويعود "محمود بكر" هاتفًا:

- الهجـمات بـترفّ.. يـا ريـت منضيعـش إجـوان.. وهنكســب إن شــاء اللــه.

كاس العالم.. كاس العالم.. كاس العالم.

"مدحت شلبي":

- وآدي هجمــة جميلــة.. خطــيرة.. عايزيــن جــول ونتعــادل.. خطــيرة.. خطــيرة.. يفتــح الملعــب ناحيــة اليمــين.. ينطلــق.

"رؤوف خليف":

- ويوزّع.

"حمادة إمام":

- وهوببــاااا عرضيــاااااة.. يــاااااااه جــت لــ"حــازم".. حُط يــا راجل.. حُــط يــا راجــل.. ادخــل التاريــخ يــا راجــل.. يــاااااااه في العارضــة

وتـردّ لينـا لسـه فيها لسـه فيهـا.. وهووبـااااااااا.

كاس العالم.. كاس العالم.. كاس العالم.

"رؤوف خليف":

- ويوزّع.

"عصام الشوالي":

- فرصة تسديدة ولا أروع.. فرصة هدف عالمي.

- كاس العالم.. كاس العالم.. كاس العالم.

"رؤوف خليف":

- ويوزّع.

"ميمي الشربيني":

- يـاااه ع الفرصـة.. يـاااااه يـا جـنرال حـظ عندمـا تعاندنـا داخـل مربـع العمليـات.

- كاس العالم.. كاس العالم.. كاس العالم.

"رؤوف خليف":

- ويوزّع.

"حمادة إمام":

- وهووبـاااااااااااا وجـوووووووووول اللـه اللـه اللـه ع الهـدف جووووووووول.

"عصام الشوالي":

- جـوول جـوووووووول جـووووووووووووول.. عالمـي يـا فنـان.. عالمـي يـا إنسـان.. عـوّدلي مـن الأول يـا مخـرج.. بْتَعْـرِف كـوورة ولا مَبْتَعْرِفِـش.. عـوّدني للفيسـتيفاال.. عـوّدني للكرنفـاال.. المصريـين.. المصرييييـين مـرّوا مـن هنـا.

ويهتـف الليبـي "حـازم الكاديـكي" بصـوت مبحـوح بالكامـل مـن فـرط الانفعـال:

- جـول.. جـول.. جـول.. جـول.. اللـه.. اللـه.. اللـه.. اللـه.. مـصر.. مـصر.. مـصر.. اللـه يـا قلبـي.. اللـه يـا قلبـي.. اللـه عليـكي يـا مصر.. اللـه عليـكي يـا مـصر.. اللـه عليـكي يـا أم الدنيـا.. يـا أم الدنيـا يـا مـصر.. يـا أم الدنيـا يـا مـصر.

ويمتــزج زئـير الجماهـير هنــا وهنــاك.. بينــما لاعبــو الخصــم يضعـون الكـرة عـلى نقطـة منتصـف الملعـب لبـدء هجـوم جديـد.. أعـين لاعبيهـم كلهـا إصرار وغضـب.. وأعـين لاعبينـا ممتلئـة بحـماس وإصرار مماثـل.. وجماهـير الفريقـين تـكادا تشـتعلان من التشـجيع.. بينـ...

طاااااااااااااخ.

...

تششششـ...

...

طاااااااااخ.

...

ششـ... شـ...

...

إسعاااااااف.. إسعاااااااف يا الله!

تعقيب

جلست مديرة الدار على كرسي مكتبها بعد أن صافحت ذلك الشاب الذي جاءها في موعده بالضبط، واتخذ هو مكانه في كرسي مقابل. رفَعَت سماعة الهاتف وطلبت له شايًا ولنفسها قرفة.. وعادت للترحيب به مجددًا، ثم دخلت في الموضوع:

- الدار هنا فيها خمسة وعشرين ضيف.. صاحبها رجل أعمال، هو عاملها على أعلى مستوى زي ما إنت شايف، بس هو مش عاملها بغرض الربح على فكرة.. وبيتابعنا دايمًا وزارة الشؤون الاجتماعية. و... و... شوف عايز تعرف إيه كمان أنا معاك للآخر.

- بصي حضرتك لو مش هيضايقك أنا هحتاج آجي زيارات كتير، مرة أو مرتين في الأسبوع لمدة تلات شهور تقريبًا.

ظهرت الدهشة على وجه المديرة، وقبل أن تردّ دخل عامل البوفيه بالمشروبات الساخنة ووضعها أمامهما وانصرف، فقالت:

- إحنا جالنا قبل كدة طلبة بيعملوا أبحاث برضه بس محدش احتاج زيارات بالمعدل ده.. يعني جم مرتين في شهر

وخـلاص.. إنـت البحـث بتاعـك عـن إيـه بالظبـط؟

فوضع كوب الشاي بعد أن رشف منه رشفتين، وردّ:

- بحـث عـن كيفيـة تطبيـق آليـات تطويـر منظومـة أنسـاق الخدمـة المجتمعيـة لـدور المسـنين عـلى المسـتويين الحكومـي والاسـتثماري.

بدا عليها عدم الفهم، فتمتمت:

- تمام.. تمام.

ثـم تظاهـرت بالتقليـب في بعـض الأوراق، وقالـت دون أن تنظـر إليـه:

- خـلاص متفقـين.. بـس يـا ريـت اليـوم الـلي هتقابـل فيـه الضيـوف تكـون موجـود هنـا بـين السـاعة خمسـة وسـبعة العـصر.. ده أحسـن معـاد.

- طيـب، فيـه أي حاجـة خاصـة المفـروض أعرفهـا بخصـوص أي حـد مـن الـلي هقابلهـم؟

نظرت إليه بعدم فهم، فسألته باستفهام حقيقي:

- حاجة زي إيه يعني؟!

- يعنـي.. إن فـلان ولاده مـش بيـزوروه مـن سـنين وبـلاش أجيـب سـيرتهم.. إن عـلان كان مـن أبطـال الحـرب وبيحـب يحـكي عنهـا..

كـده يعنـي.

فأخـذَت تنقـل عينيهـا بـين السـقف والبـاب كأنهـا تفكـر، بينـما هـي تبحـث عـن أي إجابـة تجعلها تبـدو كأهـل لمنصبهـا، فـردّت:

- هـو عمومًـا كـده، تقريبًـا كل الـلي في الـدار هنـا محـدش بيزورهـم مـن قرايبهـم.. فيـه نـاس ولادهـم بيزوروهـم مـن السـنة للسـنة، والباقيـين مفيـش ولا زيـارة.. وبينبسـطوا جـدًا مـن زيـارات طلبـة كليـة الخدمـة الاجتماعيـة الـلي زيـك.

ثـم تذكـرت شـيئًا يمكـن قولـه لتبـدو كعميقـة متمرّسـة، فقالـت بصـوت خفيـض وهـي تفتـح عينيهـا عـن آخرهـما وهـي تقـترب:

- وكلهم عندهم زهايمر!

- قصدك ألزايمر.

- أيـوه.. منـا قلـت عندهـم ألزهايمـر.. كلهـم فـوق ٨٠ سـنة فمش محتاجـة ذكاء يعني!

هـزّ رأسـه واسـتأذنها أن يبـدأ حينهـا في التجـول في المـكان، لأخـذ ملاحظـات مبدئيـة تسـاعده في البحـث الـذي يعمـل عليـه، ورحّبت هـي بشـدة كونـه سـيتركها أخـيرًا.

*****

أخـذ الشـاب يتجـول في المـكان وهـو يـدوّن ملاحظـات عامـة، وصعـد طابقًـا وأثنـاء سـيره وجـد بابًـا فخـمًا موضوعًـا عليـه لافتـة "مكتبـة"، فـأدار مقبضـه بهـدوء دون طـرق، ودلـف إلى المـكان الـذي احتـوى عـلى هيبـة لم يتوقعهـا.

كانـت المكتبـة شـبه المظلمـة عبـارة عـن قاعـة خماسـية، تحتـل أربـع حوائـط منهـا أرفـف عاليـة مليئـة بالكتـب مـن الأرضيـة للسـقف، وكانـت الأرضيـة خشـبية تصـدر صوتًـا رخيـمًا مـع كل خطـوة وَضَعَهـا عليهـا.. ومـن أماكـن عـدة كان دخـان بخـور زكيّ الرائحـة ينسـاب في نعومـة، المهيـب في الأمـر أن الثريـات كانـت مطفـأة، وكان مصـدر الضـوء الخافـت الوحيـد في المـكان، هـو شـمعة وحيـدة عـلى طاولـة خشـبية مـن طـاولات المكتبـة، يجلـس أمامهـا رجـل عجـوز لم تسـلبه سـنّه الطاعنـة أي مهابـة، بـل أضافـت لـه الكثـير.

كالمسـحور تقـدّم الشـاب باتجـاه العجـوز بخطـوات بطيئـة، إلى أن صـار واقفًـا أمامـه تمامًـا، ولم يلتفـت لـه الرجـل أبـدًا. ألقـى السـلام، ولم يتلـقَّ ردًا. وبتفهّـم كامـل ظَـل الشـاب واقفًـا مكانـه عاقـدًا كفّيـه أمامـه دونمـا أن يحملـق في الرجـل، إلا مـن نظـرة اختلسـها للرجـل الـذي أضـاءت الشـمعة وجهـه وتجاعيـده ولحيتـه البيضـاء وسـط الظـلام. لم يكـن الرجـل يقـرأ، بـل كان يكتـب بانهـماك في كشـكول ضخـم. وبعـد دقائـق بـدا أن الرجـل انتهـى مـن الكتابـة فوضـع القلـم، وأمسـك بعجلتـي كرسـيه المتحـرك ودفعـه للخلـف وحـرّك الكـرسي باتجـاه حائـط ضغـط مفاتيـح الإنـارة بـه، لتـضيء

المكتبة، ما جعل الشاب في حيرة بعد أن صار يقف وحيدًا. واتجه الرجل مجددًا بكرسيه المتحرك لأحد الأرفف العملاقة، لينهمك في البحث عن كتاب معين، إلى أن وجده فسحبه وعاد بكرسيه مجددًا لمكانه الأول أمام الشاب المرتبك.. فأطفأ الرجل الشمعة بإصبعيه، وسند ظهره للخلف، ووضع ذراعيه على مسندي كرسيه، ضامًّا قبضتيه أمام وجهه ساندًا ذقنه عليهما، وقال للشاب بجديّة:

- اتفضل!

"أيّ ألزايمر مصاب به ذلك الرجل قويّ الشكيمة؟!".

ودون أن يغير الشاب من وضعه واقفًا، انطلقا كلاهما في حديث حميم بدأ بغرض الزيارة، وتفرّع إلى نواحٍ كثيرة أذابت جميع الثلوج الموجودة وغير الموجودة. فسند الشاب على طاولة أخرى وعقد ذراعيه أمام صدره وشبّك ساقيه كالمقص، فلمح نظرة حزن لا تُخطئها عين في الرجل المسنّ، الذي سأله حينها عن اسمه، فأجاب الشاب:

- "حازم".

فهزّ الشيخ رأسه متألمًا واغرورقت عيناه بالدموع، وتمتم:

- سبحان الله!

شعر "حازم" بشفقة ما، لكنه لم يسأل، فأضاف الشيخ بحزن:

- نفْس الشَبَه.. والحركات.. والوقفة.. وكمان الاسم!

- مع مين؟

- اسمك على اسم ابني.. الله يرحمه!

ارتبك "حازم" ولم يدرِ ماذا يفعل، فأراد تغيير الموضوع، فسأل:

- هو حضرتك بتكتب إيه في الكشكول ده؟

فردّ الشيخ بتماسك:

- رواية.

فسأله "حازم" مجددًا:

- اسمها إيه؟

فابتسم وعيناه تشعان حيوية من جديد، وردّ:

- كنت فعلاً محتار أسميها إيه.. بس بعد ما شفتك، خلاص قررت!

وأخذ يقلب الصفحات بالدفعات، إلى أن وصل للصفحة الأولى التي كانت بيضاء فعلاً.. وأشعل الشمعة مجددًا بكبريت يجاوره على الطاولة، وبمجرد اشتعال الشمعة انطفأت الثُريّات من ذاتها، فنظر "حازم" لمفاتيح الإنارة تلقائيًا ولم يجد أحدًا هناك، فالتفت جزعًا للرجل، الذي بدا في الظلام على ضوء

الشمعة شخص آخر تمامًا، بجديّته وانهماكه وصرامته المخيفة. جاورَه "حازم" واقفًا كي يقرأ ما يكتبه الرجل، الذي أخذ يكتب ببطء شديد وخطّ حسَن، عنوان روايته:

"وعسى أن تكرهوا شيئًا".

وفي أسفل الصفحة أضاف:

تأليف: أنور عبد الحق.

وشعر "حازم" بالحروف تتحرك وبالكتاب يجذبه للتحليق إليه.. دوار ساحق ألمّ برأسه.. حاول أن يستند إلى أي شيء، فلم يجد غير دخان البخور المستمر في الازدياد كثافة تعميه.. شعر بنفسه يسبح في الهواء وينجذب بعنف إلى داخل الكتاب، حاول أن يصرخ فلم يطعه صوته.. وقبل أن تبتلعه صفحات الكتاب أمسكته يد الشيخ القوية، ويتبدد الدخان الكثيف من أمام وجهه قليلاً، وينظر إلى "حازم" نظرة مطَمْئنة.. ويهزّ رأسه قليلاً ألا يقلق.. قبل أن يترك يد "حازم" الذي يبتلعه الكتاب ويدخل "حازم" في إعصار عنيف ينتهي بأن يجد نفسه مُلقى أرضًا من جديد.. في مكان وزمان لم يتخيل أن يكون فيهما أبدًا.

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :
kayanpublishing kayan.publish
kayanpublishing kayan_publishing